

(نهايته وما فعله ابنه)

ومات من ساعته . وكفنه ابنه ببيض خلقانه ، وغسله بماء البئر ، ودفنه من غير أن يضرح له ، أو يلحد له ، ورجع .

فلما صار في المنزل ، نظر إلى جثة خضراء معلقة . قال : أي شيء في هذه الجثة ؟ قالوا : ليس اليوم فيها شيء . قال : فأى شيء كان فيها قبل اليوم ؟ قالوا : سمع . قال : وما كان يصنع به ؟ قالوا : كنا في الشتاء نلقى له في البريمة شيئاً من دقيق نعمله له ، فكان ربما يرقه بشيء من سم . قال : تقولون ولا تفعلون ! السم أخو العسل . وهل أفسد الناس أموالهم إلا في السم والعسل ؟ والله إنى لولا أن للجثة ثمتا لما كسرتها إلا على قبره ! قالوا : فخرج فوق أبيه ، وما كنا نظن أن فوقه مريداً !

(تعريف لكلمات سبقت)

المخترائي الذي يأتيك في زى ناسيك ، ويريك أن (تاتك) قد قور لسانه من أضله ، لأنه كان مؤذنا هناك . ثم يفتح فاه ، كما يصنع من يتأب ، فلا ترى له لسانا البتة ! ولسانه في الحقيقة كلسان الثور ! وأنا أحد من خديع بذلك . ولا بد للمخترائي أن يكون معه واحد يعبر عنه ، أو لوح أو قوطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

والكاعاني الذي يتجنن ، ويتصارع ، ويؤبد ، حتى لا يشك أنه مجنون ، لا دواء له ، لشيء ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته .

والبانوان الذي يقف على الباب ، ويسأل العلق^(١) ويقول : بانوا ! وتفسير ذلك بالعريضة : يا مولاي !

والقرسي الذي يغضب ساقه وذراعه غضبا شديدا ، ويبس على ذلك ليلة . فإذا تورم واختنق الدم ، مسح بشيء من صابون ودم الأخوين ، وقطر عليه شيئا من سم ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه . فلا يشك من رآه أن به الإكلة ، أو تليئة شبه الإكلة .

والمشعب الذي يختال للصبي حين يولد : بأن يغميه ، أو يجعله أغسم^(٢) ، أو أغصد^(٣) ؛ ليسأل الناس به أهله . وربما جاءت به أمه وأبوه ، ليتولّى ذلك منه بالغمز الثقيل . لأنه يصير حينئذ عقدة وغلة : فإما أن يكتسبها به ، وإما أن يكرّياها بكرّاء معلوم . وربما أكرّوا أولادهم ممن ينضى إلى إفريقيا ، فيسأل بهم الطريق أجمع ، بالمال العظيم . فإن كان ثقة مليقا ، والأقام بالأولاد والأجرة

(١) العلق : ما يعلق به الباب ، والمقصود بسله انتزاعه وإخراجه من موضعه ليفتح الباب .

(٢) أغسم : يس في فصل الرسغ تموج منه اليد والقدم . (٣) الأغصد : الدقيق العصد ومن كانت إحدى عضدته قصيرة .

كَفِيلًا .

وَالْعَوَاءُ الَّذِي يَسْأَلُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ . وَرُبَّمَا طَرَبَ ، إِنْ كَانَ لَهُ صَوْتٌ حَسَنٌ ، وَخَلَقَ شَجِيئًا .

وَالْإِسْطِيلُ هُوَ الْمُتَعَامِي : إِنْ شَاءَ أَرَاكَ أَنَّهُ مُنْخَسِفُ الْعَيْنَيْنِ ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاكَ أَنَّ بِهِمَا مَاءً ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاكَ أَنَّهُ لَا يُعْصِرُ ، لِلْخَسْفِ ، وَلِرِيحِ السَّبِيلِ^(١) .

وَالْعَزِيدِيُّ الَّذِي يَدُورُ وَمَعَهُ الدَّرَنِيهَمَاتُ ، وَيَقُولُ : هَذِهِ دَرَاهِمٌ قَدْ جُمِعَتْ لِي فِي ثَمَنِ قَطِيفَةٍ . فَرِيدُونِي فِيهَا ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! وَرُبَّمَا اخْتَمَلَ صَبِيئًا عَلَى أَنَّهُ لَقِيطٌ . وَرُبَّمَا طَلَبَ فِي الْكَفَنِ .

وَالْمُسْتَعْرِضُ الَّذِي يُعَارِضُكَ ، وَهُوَ ذُو هَيْئَةٍ ، وَفِي ثِيَابٍ صَالِحَةٍ . وَكَأَنَّهُ قَدْ هَابَ مِنَ الْحَيَاءِ ، وَيَخَافُ أَنْ يَرَاهُ مَعْرِفَةً ! ثُمَّ يَغْتَرِضُكَ اعْتِرَاضًا ، وَيَكَلِّمُكَ خَفِيئًا .

وَالْمُعَدَّسُ الَّذِي يَقِفُ عَلَى الْمَيْتِ يَسْأَلُ فِي كَفَنِهِ ، وَيَقِفُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ عَلَى الْحِمَارِ الْمَيْتِ ، وَالتَّبْعِيرِ الْمَيْتِ ، يَدْعِي أَنَّهُ كَانَ لَهُ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ أُخْصِرَ ؛ وَقَدْ تَعَلَّمَ لُغَةَ الْخُرَّاسَانِيَّةِ وَالْيَمَانِيَّةِ

وَالْإِفْرِيقِيَّةِ ، وَتَعَرَّفَ تِلْكَ الْمُثَدَّنَ وَالسَّكَّكَ وَالرَّجَالَ . وَهُوَ مَتَى شَاءَ كَانَ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَمَتَى شَاءَ كَانَ مِنْ أَهْلِ فَرْغَانَةِ^(٢) ، وَمَتَى شَاءَ كَانَ مِنْ أَى مَخَالِيفِ^(٣) الْيَمَنِ شَاءَ !

وَالْمُكْدِيُّ صَاحِبُ الْكِدَاءِ .

وَالْكَفْبِيُّ أَضِيفَ إِلَى أَبِي كَعْبٍ الْمُؤْصِلِيِّ ، وَكَانَ عَرِيفُهُمْ بَعْدَ خَالَوَيْهِ سَنَةً عَلَى مَاءٍ .

وَالزُّكُورِيُّ هُوَ خُبْرُ الصَّدَقَةِ ، كَانَ عَلَى سَجْنَى أَوْ عَلَى سَائِلٍ .

هَذَا تَفْسِيرُ مَا ذَكَرَ خَالَوَيْهِ فَقَطْ . وَهُمْ أَضْعَافُ مَا ذَكَرْنَا فِي الْعَدَدِ . وَلَمْ يَكُنْ يَجُوزُ أَنْ نَتَكَلَّفَ

شَيْئًا لَيْسَ مِنَ الْكِتَابِ فِي شَيْءٍ .

(مِنْ مَوَاقِفِ الْبَخْلَاءِ)

رَفَعَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالِدٍ بْنِ أَسِيدٍ ، رَغِيْفًا مِنْ خُوانِهِ بِيَدِهِ ، ثُمَّ رَطَلَهُ ، وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ . ثُمَّ قَالَ : يَزْعُمُونَ أَنَّ خُبْرِي صَغَارٌ . أَيْ ابْنِ ... يَأْكُلُ مِنْ هَذَا الْخُبْرِ رَغِيْفَيْنِ^(٤) ؟

وَكُنْتُ أَنَا وَأَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنُ سَبَّارِ النَّظَّامِ ، وَقَطْرُبُ النَّحْوِيِّ ، وَأَبُو الْفَتْحِ مُؤَدَّبُ مَنْصُورِ بْنِ زِيَادٍ ، عَلَى خُوانِ فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ . وَالْخُوانُ مِنْ جَزَعَةٍ . وَالْعَصَارُ^(٥) صِينِيٌّ مُلْمَعٌ ، أَوْ خَلْتَجِيَّةٌ^(٦)

كَيْمَاقِيَّةٌ^(٧) . وَالْأَلْوَانُ طَيِّبَةٌ شَهِيَّةٌ ، وَعَذِيَّةٌ قَدِيَّةٌ . وَكُلُّ رَغِيْفٍ فِي بَيَاضِ الْفَضَّةِ ، كَأَنَّهُ الْبَذْرُ ، وَكَأَنَّهُ

(١) السَّبِيلُ : دَاءٌ فِي الْعَيْنِ شَبَّهِ غَشَاوَةً كَأَنَّهُا نَسَجَ الْعَنْكَبُوتِ .

(٢) فَرْغَانَةُ : بَلَدٌ مِنْ بِلَادِ الْعَجَمِ . بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَمَرْقَنْدَ ثَلَاثَةَ وَخَمْسُونَ فَرَسَخًا .

(٣) مَخَالِيفُ : جَمْعُ مَخْلَافٍ ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ وَالصِّقْعُ . (٤) انْظُرِ الْعَمْدَ الْفَرِيدَ (٦/ ١٤٠) .

(٥) الْعَصَارُ : طِينٌ يَتَخَذُ مِنْهُ الْخَزَفُ ، وَالصِّينِيُّ أَجُودُهُ . (٦) خَلْتَجِيَّةٌ : نَسَبَةٌ إِلَى خَلِجٍ ، شَجَرٌ يَتَخَذُ مِنْهُ الْأَوَانِي .

(٧) كَيْمَاقِيَّةٌ : نَسَبَةٌ إِلَى كَيْمَاقٍ ، وَهِيَ وَلايَةُ وَاسِعَةٌ فِي حُدُودِ الصِّينِ .

مِرْآةً مَجْلُوءَةً . وَلَكِنَّهُ عَلَى قَدَرٍ عَدِيدِ الرُّعُوسِ .

فَأَكَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ رَغِيفَهُ إِلَّا كِشْرَةً . وَلَمْ يَشْبَعُوا فِيرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ . وَلَمْ يُعَذِّدُوا بِشَيْءٍ فَيَسْتَمُوا أَكْلَهُمْ .
وَالْأَيْدَى مُعَلَّقَةٌ . وَإِنَّمَا هُمْ فِي تَنْقِيرٍ وَتَنْتِيفٍ !

فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، أَقْبَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ ، وَتَحْتَ الْقَصْصَةِ رُقَاقَةً ، فَقَالَ : يَا أَبَا الْفَتْحِ ،
خُذْ ذَلِكَ الرَّغِيفَ فَقَطِّعْهُ وَقِسِّمْهُ عَلَى أَصْحَابِنَا . فَتَغَاوَلَ أَبُو الْفَتْحِ . فَلَمَّا أَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ الرَّابِعَةَ قَالَ :
مَا لَكَ - وَبِلَكَ ! - لَا تُقَطِّعُهُ بَيْنَهُمْ ؟ قَطَّعَ اللَّهُ أَوْصَالَكَ ! قَالَ : يُتَلَّى عَلَى يَدَيَّ غَيْرِي ، أَصْلَحَكَ
اللَّهُ ! فَخَجَلْنَاهُ مَرَّةً ، وَضَحِكْنَا مَرَّةً ، وَمَا ضَحِكْنَا صَاحِبِنَا وَلَا خَجَل .

وَرَزَنَتُهُ أَنَا وَالْمَكِّي . وَكُنْتُ أَنَا عَلَى حِمَارٍ مُكَارٍ ، وَالْمَكِّي عَلَى حِمَارٍ مُشْتَعَارٍ . فَصَارَ الْحِمَارُ إِلَى
أَشْوَأَ مِنْ حَالِ الْمَذُودِ^(١) ! فَكَلَّمَ الْمَكِّي غِلْمَانَهُ ، فَقَالَ : لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ التَّبَيُّنَ فَمَا فَوْقَهُ .

اسْقُوهُ مَاءً فَقَطْ . فَسَقَوْهُ مَاءً بَرًّا ، فَلَمْ يَشْرِبْهُ الْحِمَارُ ، وَقَدْ مَاتَ عَطَشًا .

فَأَقْبَلَ الْمَكِّي عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! إِنَّهُمْ يَشْقُونَ حِمَارِي مَاءً بَرًّا ، وَمَنْزِلُ صَاحِبِ الْحِمَارِ
عَلَى شَارِعِ دِجْلَةَ ، فَهَوَ لَا يَغْرِفُ إِلَّا الْعَذْبَ . قَالَ : فَاْمُرْجُوهُ لَهُ يَا غَلَامُ ! فَمَرْجُوهُ فَلَمْ يَشْرِبْهُ . فَأَعَادَ
الْمَسْأَلَةَ ، فَأَمَكْنَتْهُ مِنْ أُذُنٍ مَنْ لَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يَشْتَهَى .

وَقَالَ لِي مَرَّةً : يَا أَخِي ، إِنَّ نَاسًا مِنَ النَّاسِ يَغْمِسُونَ اللَّقْمَةَ إِلَى أَضْبَارِهَا^(٢) فِي الْمُرْوَى^(٣) .
فَأَقُولُ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يُجِبُّونَ الْمُلُوحَةَ ، وَلَا يُجِبُّونَ الْحَايِضَ ! فَمَا أَلْبَثْتُ أَنْ أَرَى أَحَدَهُمْ يَأْخُذُ خَوْفَ
الْجُرُودَةِ^(٤) ، فَيَغْمِسُهَا فِي الْخَلِّ الْحَاقِظِ ، وَيَغْرِفُهَا فِيهِ ! وَرُبَّمَا رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ يُغْمِسُهَا فِي الْخَلِّ بَعْدَ
التَّفْرِيقِ سَاعَةً ، فَأَقُولُ : هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَجْمَعُونَ حُبَّ الْحُمُوضَةِ إِلَى حُبِّ الْمُلُوحَةِ . ثُمَّ لَا أَلْبَثُ أَنْ أَرَاهُمْ
يَضْنَعُونَ مِثْلَ ذَلِكَ بِالْخَرْدَلِ ، وَالْخَرْدَلُ لَا يُرَامُ ! قُلْ لِي : أَيُّ شَيْءٍ طَبَائِعُ هَؤُلَاءِ؟ وَأَيُّ ضَرْبٍ هُمْ ؟
وَمَا دَوَاؤُهُمْ ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ عِلَاجُهُمْ ؟

فَلَمَّا رَأَيْتُ مَذْهَبَهُ وَحُفْمَهُ ، وَغَلَبَةَ الْبُخْلِ عَلَيْهِ ، وَقَهْرَهُ لَهُ ، قُلْتُ : مَا لَهُمْ عِنْدِي عِلَاجٌ هُوَ أَنْجِعَ
فِيهِمْ مِنْ أَنْ يُعْتَمِعُوا الصَّبَاغَ كُلَّهُ ! قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، إِنَّ هُوَ غَيْرُهُ !

(من أحاديث البخلاء)

وَصَدِيقٌ كُنَّا قَدِ ابْتُلِينَا بِمُؤَاكَلَتِهِ . وَقَدْ كَانَ ظَنُّنَا قَدْ عَزَفَنَاهُ بِالْبُخْلِ عَلَى الطَّعَامِ . وَهَجَسَ ذَلِكَ
فِي نَفْسِهِ . وَتَوَهَّمُ أَنَّا قَدْ تَذَاكَرْنَا أَمْرَهُ . فَكَانَ يَتَرَيَّدُ فِي تَكْثِيرِ الطَّعَامِ ، وَفِي إظهارِ الْجَوْصِ عَلَى أَنْ
يُؤْكَلَ . حَتَّى قَالَ : مَنْ رَفَعَ يَدَهُ قَبْلَ الْقَوْمِ غَرَمَنَاهُ دِينَارًا . فَتَرَى بُغْضَهُ إِنْ غَرَمَ دِينَارًا . وَظَاهِرُ لَايْمَتِهِ

(١) المذود : معلق الدابة .

(٢) أضبارها : جميع نواحيها . يقال : أخذ الشيء بأضباره : أى تأشأ بأجمعه .

(٣) المرؤى : هو الذى يؤتمد به ، وهو ما يسمى الآن «السلطة» .

(٤) الجرودقة : الرغيف ، كما سبق أن ذكرنا .

مُحْتَمَلٌ فِي رِضَا قَلْبِهِ ، وَما يَرْجُو مِنْ نَفْعِ ذَلِكَ لَهُ .

وَلَقَدْ خَبَّرَنِي خَبَّازٌ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا ، أَنَّهُ جَلَدَهُ عَلَى إِنْضَاجِ الْخُبْزِ ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : أَنْضِجْ خُبْزِي
الَّذِي يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَاجْعَلْ خُبْزَ مَنْ يَأْكُلُ مَعِيَ عَلَى مِقْدَارِ بَيْنِ الْمَقْدَارَيْنِ ^(١) . وَأَمَّا خُبْزُ الْعِيَالِ
وَالضَّيْفِ فَلَا تُقَرِّبْتَهُ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَا يَصِيرُ الْعَجِينُ رَغِيْفًا ، وَبِقَدَرٍ مَا يَتِمَّاسُكَ فَقَطْ ! فَكَلَّفَهُ
الْعَرِيصُ . فَلَمَّا أَعْجَزَهُ ذَلِكَ ، جَلَدَهُ حَدَّ الزَّائِي الْخُرُ ^(٢) !

فَحَدَّثْتُ بِهِذَا الْحَدِيثَ عَبْدَ اللَّهِ الْعَرُوضِيَّ ، فَقَالَ : أَلَمْ تَعْرِفْ شَأْنَ الْجَدْيِ ؟ ضَرَبَ الشُّوَاءُ
ثَمَانِينَ سَوْطًا لِمَكَانِ الْإِنْضَاجِ ! وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ : ضَعِ الْجَدْيَ فِي الثَّنُورِ حِينَ تَضَعُ الْخُوانَ ، حَتَّى
أَسْتَبْطِئَكَ أَنَا فِي إِنْضَاجِهِ . وَتَقُولُ أَنْتَ : بَقِيَ قَلِيلٌ ! ثُمَّ تَجِئُنَا بِهِ ، وَكَأَنِّي قَدْ أَعْجَلْتُكَ ! فَإِذَا وَضِعَ
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ غَيْرُ مُنْضَجٍ ، اخْتَسَبْتُ عَلَيْهِمْ يَاحْضَارِ الْجَدْيِ . فَإِذَا لَمْ يَأْكُلُوهُ أَعَدَّتْهُ إِلَى الثَّنُورِ ، ثُمَّ
أَخْضَرَتْ نَافَةَ الْغَدِّ بَارِدًا . فَيَقُومُ الْجَدْيُ الْوَاحِدُ مَقَامَ جَدَّيْنِ !

فَجَاءَ بِهِ الشُّوَاءُ يَوْمًا نَضِيجًا ، فَعَمِلَ فِيهِ الْقَوْمُ . فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، جَلْدَ الْقَازِفِ الْخُرُ ^(٣) !

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْمُثَنَّى عَنْ صَدِيقٍ لِي وَلَهُ ، ضَخْمُ الْبَدَنِ ، كَثِيرُ الْعِلْمِ ، فَاشِي الْعِلَّةِ ، عَظِيمُ
الْوِلَايَاتِ ، أَنَّهُ إِذَا دَعَا عَلَى مَائِدَتِهِ بِفَضْلِ دَجَاجَةٍ ، أَوْ بِفَضْلِ رُقَاقٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، رَدَّ الْخَادِمَ مَعَ
الْخَبَّازِ إِلَى الْقَهْرَمَانِ ^(٤) ، حَتَّى يَصُكَّ لَهُ بِذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الْمَطْبَخِ !

وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مَرَّةً وَقَدْ تَنَاوَلَ دَجَاجَةً ، فَشَقَّهَا بِصَفَّيْنِ ، فَأَلْقَى نِصْفَهَا إِلَى الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ ، وَنِصْفَهَا
إِلَى الَّذِي عَنْ شِمَالِهِ . ثُمَّ قَالَ : يَا غُلَامُ ! جِئْنِي بِوَاحِدَةٍ رَخْصَةٍ ، فَإِنَّ هَذِهِ كَانَتْ غَضِلَةً جَدًّا .
فَحِسِبْتُ أَنَّ أَقَلَّ مَا عِنْدَ الرَّجُلَيْنِ إِلَّا يَفْعُودَا إِلَى مَائِدَتِهِ أَبَدًا . فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ فَخَّرَا عَلَيَّ بِمَا خَبَّاهُمَا بِهِ
مِنْ ذَلِكَ دُونِي !

وَكَانُوا رُبَّمَا خَصُوصُهُ ، فَوَضَعُوا بَيْنَ يَدَيْهِ الدَّرَاجَةَ ^(٥) السَّمِينَةَ ، وَالدَّجَاجَةَ الرَّخْصَةَ . فَاَنْطَقَاتِ
الشَّمْعَةُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي . فَأَعَارَ عَلَيَّ الْأُسُورِيُّ عَلَى بَعْضِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَاعْتَنَمَ الظُّلْمَةَ .
وَعَمِلَ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ ^(٦) ! فَقَطَّنَ لَهُ ، وَما هُوَ بِالْفَطِنِ إِلَّا فِي هَذَا الْبَابِ . وَقَالَ : كَذَلِكَ
الْمُلُوكُ كَانَتْ لَا تَأْكُلُ مَعَ الشُّوقَةِ !

وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْمُثَنَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْمِدُونَ إِلَى الْجَزَائِقِ الَّتِي تُرْفَعُ عَنْ مَائِدَتِهِ : فَمَا كَانَ مِنْهَا
مُلْطَحًا ، ذَلِكَ ذَلِكَ شَدِيدًا ، وَما كَانَ مِنْهَا قَدْ ذَهَبَ جَانِبٌ مِنْهُ ، قُطِعَ بِسَكِينٍ مِنْ تَرَابِيعِ ^(٧) الرُّغِيْفِ

(١) بَيْنَ الْمَقْدَارَيْنِ : حَالِ وَسْطِ .

(٢) الْخُرُ : هُوَ غَيْرُ الْعَبْدِ حَيْثُ يَجْلَدُ مِائَةَ جَلْدَةٍ إِنْ كَانَ غَيْرَ مُحَصَّنٍ : أَيْ غَيْرَ مَتْرُوجٍ ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَيَجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً .

(٣) الْقَازِفِ الْخُرُ : هُوَ الَّذِي يَقْذِفُ الْمَتْرُوجَ أَوْ الْمَتْرُوجَةَ : أَيْ يَرْمِيهِ أَوْ يَرْمِيهَا بِالْفَاحِشَةِ ، وَالْعَبْدُ يَجْلَدُ فِي ذَلِكَ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً .

(٤) الْقَهْرَمَانُ : هُوَ أَمِينُ الْمَلِكِ وَوَكِيلُهُ الْخَاصُّ بِتَنْبِيهِ دَخْلِهِ وَخُرْجِهِ . (٥) الدَّرَاجَةُ : نَوْعٌ مِنَ الطَّيْرِ .

(٦) اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ : مِثْلُ يَضْرِبُ لِلْعَمَلِ فِي الْخَفَاءِ . (٧) تَرَابِيعُ الرُّغِيْفِ : أَيْ أَقْسَامُهُ الْأَرْبَعَةُ .

مِثْلُ ذَلِكَ ، لِئَلَّا يَشْكُ مَنْ رَأَاهُمْ قَدْ تَعَمَّدُوا ذَلِكَ . وَمَا كَانَ مِنَ الْأَنْصَافِ وَالْأَزْبَاجِ جَعَلَ بَعْضُهُ لِلرَّيْدِ ، وَقُطِعَ بَعْضُهُ كَالْأَصَابِعِ ، وَجُعِلَ مَعَ بَعْضِ الْقَلَايَا ^(١) .

(ثريدته بلقاء)

ولقد رأيت رجلاً ضَخْماً ، فَخَمَ اللَّفْظُ ، فَخَمَ الْمَعْنَى ، تَزْيِيفٌ فِي ظِلِّ مَلِكٍ ؛ مَعَ غُلُوِّ هَمٍّ ، وَلِسَانٍ غَضَبٍ ^(٢) ، وَمَعْرِفَةٍ بِالْغَايِضِ مِنَ الْغُيُوبِ ، وَالذَّقِيقِ مِنَ الْمَحَاسِنِ ؛ مَعَ شِدَّةٍ تَسْرِعُ إِلَى أَغْرَاضِ النَّاسِ ، وَضِيقٍ صَدْرٍ بِمَا تَعْرِفُ مِنْ غُيُوبِهِمْ .

وَأَنْ تُرِيدَتْهُ لِبُلْقَاءٍ ، إِلَّا أَنْ تِيَاضَهَا نَاصِعٌ ، وَلَوْ نَهَا الْآخَرُ أَضْهَبَ ^(٣) ! مَا رَأَيْتُ ذَلِكَ مَرَّةً وَلَا مَرَّتَيْنِ .

وَكُنْتُ قَدْ هَمَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَنْ أَعَاتِيَهُ عَلَى الشَّيْءِ يَسْتَأْذِنُ بِهِ ، وَيَخْتَصُّ بِهِ ، وَأَنْ أُخْتِمَلَ ثِقَلُ تِلْكَ التَّصْصِيحَةِ وَبَشَاعَتِهَا ، فِي حَظِّهِ وَفِي النَّظَرِ لَهُ . وَرَأَيْتُ أَنْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ خَاقِ الْإِخْلَاصِ ، وَمَنْ قَوَّطَ الْإِخَاءَ مِنَ الْإِخْوَانِ . فَلَمَّا رَأَيْتُ الْبُلُقَةَ هَانَ عَلَى التَّحْجِيلِ وَالْعُرَّةِ . وَرَأَيْتُ أَنْ تَوَكُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ ، وَأَنْ الْمَوْعِظَةُ لَعَفْوٌ .

وَقَدْ زَعَمَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ أَنَّ ثَرِيدَةَ مَالِكِ بْنِ الْمُنْذِرِ كَانَتْ بُلْقَاءً . وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا . وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا لَا أُخْبِرُكَ بِهِ ، وَهُوَ شَيْءٌ لَمْ أَرَهُ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا سَمِعْتُ بِهِ فِي غَيْرِهِ .

وَلِسْنَا مِنْ تَشْمِيَةِ الْأَصْحَابِ الْمُتَهَكِّكِينَ ، وَلَا غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ فِي شَيْءٍ . أَمَّا الصَّاحِبُ فَإِنَّمَا لَا تُسَمِّيهِ لِحُرْمَتِهِ ، وَوَاجِبِ حَقِّهِ . وَالْآخَرُ لَا نُسَمِّيهِ لِيَسْتُرَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلِمَا يَجِبُ لِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ . وَإِنَّمَا نُسَمِّي مَنْ خَرَجَ مِنْ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ . وَلَرُبَّمَا سَمَّيْنَا الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ مِمَّنْ يُمَازَحُ بِهِذَا ، وَرَأَيْنَاهُ يَتَظَرَّفُ ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ الظَّرْفَ سُلْماً إِلَى مَنْعِ شَيْئِهِ ^(٤) .

(قِصَّةُ أَبِي جَعْفَرٍ)

وَلَمْ أَرْ مِثْلَ أَبِي جَعْفَرِ الطَّرْسُوسِيِّ : زَارَ قَوْمًا فَأَكْرَمُوهُ وَطَيَّبُوهُ ، وَجَعَلُوا فِي شَارِبِهِ وَسَبْلَتَيْهِ ^(٥) غَالِيَةً . فَحَكَّه شَفْتُهُ الْعُلْيَا ، فَأَذْخَلَ إصْبَعُهُ فَحَكَّهَا مِنْ بَاطِنِ الشَّفَةِ ، مَخَافَةَ أَنْ تَأْخُذَ إصْبَعُهُ مِنَ الْغَالِيَةِ شَيْقًا ، إِذَا حَكَّهَا مِنْ قَوْقُ !

وَهَذَا وَشَبْهُهُ إِنَّمَا يَطْيِبُ جَدًّا إِذَا رَأَيْتَ الْحِكَايَةَ بِغَيْنِكَ ، لِأَنَّ الْكِتَابَ لَا يُصَوِّرُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ ،

(١) الْقَلَايَا : جَمْعُ قَلِيَّةٍ ، مَرَقَةٌ تَتَخَذُ مِنَ لَحُومِ الْإِبِلِ وَكَابِدَاهَا .

(٢) غَضَبٌ : يَرِيدُ أَنَّهُ فَصِيحٌ لَهُ تَأْوِيلُهُ . (٣) أَضْهَبُ : كُنُوزُ الشَّعْرِ الْمَحْمَرِّ .

(٤) شَيْئُهُ : الْعَيْبُ ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ يَجْعَلُ ذَلِكَ التَّظَرُّفَ وَسِيلَةً إِلَى سِتْرِ بَخْلِهِ الَّذِي بَعِيهِ .

(٥) سَبْلَتَيْهِ : طَرَفُ الشَّارِبِ مِنَ الشَّعْرِ وَمَقْدَمُ اللَّحْيَةِ ، وَالْغَالِيَةُ نَوْعٌ مِنَ الطَّيِّبِ .

ولا يَأْتِي لَكَ عَلَى كُنْهِهِ ، وَعَلَى حُدُودِهِ وَحَقَائِقِهِ .

(قِصَّةُ الْحِزَامِيِّ)

وأما أبو مُحَمَّدٍ الحِزَامِيُّ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَاسِبٍ، كَاتِبُ مُوَيْسٍ، وَكَاتِبُ دَاوُدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ، فَإِنَّهُ كَانَ أَبْخَلَ مَنْ بَرَأَ اللَّهَ، وَأَطِيبَ مَنْ بَرَأَ اللَّهَ. وَكَانَ لَهُ فِي الْبُخْلِ كَلَامٌ. وَهُوَ أَخَذُ مَنْ يُنْصَرُهُ وَيُفْضِّلُهُ، وَيَحْتَاجُ لَهُ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ.

وَأِنَّهُ رَأَى مَرَّةً فِي تَشْرِينِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ بَكَرَ الْبَرْدُ شَيْئًا. فَلَبِثْتُ كِسَاءً لِي قَوْمِيًّا^(١) خَفِيفًا، قَدْ نِيلَ مِنْهُ. فَقَالَ لِي: مَا أَفْبَحَ الشَّرَفِ بِالْعَاقِلِ، وَأَسْمَحَ الْجَهْلَ بِالْحَكِيمِ! مَا ظَنَنْتُ أَنَّ إِهْمَالَ النَّفْسِ وَسُوءَ السِّيَاسَةِ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى!

قلتُ : وأى شيء أنكرتَ مِنّا مُذِ اليومِ ؟ وما كانَ هذا قولكَ فينا بالأَمْسِ . فقالَ : لُبْسُكَ هَذَا الْكِسَاءَ قَبْلَ أَوَانِهِ . قلتُ : قد حَدَّثَ مِنَ الْبُزْدِ بِمَقْدَارِهِ . وَلَوْ كَانَ هَذَا الْبُرْدُ الْحَادِثُ فِي تَمُورٍ وَأَبَ لَكَانَ إِنَّا لَهُذَا الْكِسَاءِ . قَالَ : إِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَاجْعَلْ بَدَلَ هَذِهِ الْمُبْطِنَةِ حُجَّةً مَحْشُوءَةً ، فَإِنَّهَا تَقُومُ هَذَا الْمَقَامَ ، وَتَكُونُ قَدْ خَرَجْتَ مِنَ الْخَطِئِ . فَأَمَّا لُبْسُ الصُّوفِ الْيَوْمَ ، فَهُوَ الْيَوْمَ غَيْرُ جَائِزٍ .

قلتُ : ولم ؟ قال : لأنَّ غُبارَ آخِرِ الصَّيْفِ يَتَدَاخِلُهُ ، وَيَسْكُنُ فِي خَلَلِهِ . فَإِذَا أَمْطَرَ النَّاسُ ، وَنَدَى
 الْهَوَاءُ ، وَابْتَلَّ كُلُّ شَيْءٍ ، ابْتَلَّ ذَلِكَ الْغُبَارُ . وَلَئِنَّمَا الْغُبَارُ تَرَابٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لُبَابُ التُّرَابِ . وَهُوَ مَا لَيْعَ ،
 وَيَتَقَبَّضُ عِنْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ الْكِسَاءُ وَيَتَكَرَّشُ ؛ لِأَنَّهُ صُوفٌ ، فَيَنْصَمُّ أَجْرَاؤُهُ عَلَيْهِ ، فَيَأْكُلُهُ أَكْلُ الْقَادِحِ ،
 وَيَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ الشُّوسِ . وَلَهُوَ أَشْرَعُ فِيهِ مِنَ الْأَرْضَةِ فِي الْجُدُوعِ النَّجْرَانِيَّةِ (٢) !

ولكنْ أَخْرَجْنَاهُ؛ حَتَّى إِذَا أَمْطَرَ النَّاسُ، وَسَكَنَ الْعُبَّارُ، وَتَلَبَّدَ التُّرَابُ، وَحَطَّ الْمَطَرُ مَا كَانَ فِي
الْهَوَاءِ مِنَ الْعُبَّارِ، وَغَسَلَهُ وَصَفَّاهُ، فَالْبَشَةُ حَيْثُذِ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ!

وَكَانَ يَبْعُ إِلَى عِيَالِهِ بِالْكُوفَةِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، فَيَشْتَرِي لَهُمْ مِنَ الْحَبِّ مِقْدَارَ طَبِيعِهِمْ، وَتُؤْتِي سَنَّتِهِمْ. فَإِذَا نَظَرَ إِلَى حَبِّ هَذَا، وَإِلَى حَبِّ هَذَا، وَقَامَ عَلَى سِغَرٍ، اِكْتَالَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا كِيلَةً مَعْلُومَةً، (ثُمَّ وَزَنَهَا) بِالْمِيزَانِ، وَاشْتَرَى أَثْقَلَهَا وَزَنًا.

وكان لا يختار على البلدى والموصلى شيئا، إلا أن يتقارب السعير. وكان على كل حال يفقر من الميساني⁽³⁾، إلا أن يضطر إليه، ويقول: هو ناعم ضعیف، وناز المعدة شيطان! فإنما ينبغي لنا أن نطعم الحَجَر وما أشبه الحَجَر!

وَقُلْتُ لَهُ مَرَّةً: أَعَلِمْتَ أَنَّ حُجْرَ الْجَلْدِيِّ يَنْبُتُ عَلَيْهِ شَيْءٌ شَبِيهُ بِالطِّينِ وَالتَّرَابِ وَالْعُبَارِ الْمُتْرَاكِمِ؟

(١) قوميسياً : من صناعة قومس التي تقع بين خراسان وبلاد الجليل .

(٢) الثجرائية : نسبة إلى نجران ، وهي موضع باليمن ، والظاهر أن جذوع شجرها كانت سهلاً على تلك السوسة التي تأكل الخشب .

(٣) المِيسَانِي : نسبة إلى ميسان بالعراق .

قال : حَبَّذَا ذَلِكَ مِنْ خُبْرٍ ! وَلَيْتَهُ قَدْ أَشْبَهَ الْأَرْضَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا الْمِقْدَارِ !
وَكَانَ إِذَا كَانَ جَدِيدَ الْقَمِيصِ وَمَغْسُولَهُ ، ثُمَّ أَتَوْهُ بِكُلِّ بَحُورٍ فِي الْأَرْضِ ، لَمْ يَتَبَخَّرْ ، مَخَافَةَ أَنْ
يُسَوِّدَ دُخَانُ الْعُودِ بَيَاضَ قَمِيصِهِ . فَإِنْ أَتَسَخَّ فَاتَى بِالْبَحُورِ ، لَمْ يَرْضَ بِالْبَحْرِ وَاسْتَقْصَاءِ مَا فِي الْعُودِ
مِنَ الْفَنَارِ^(١) ، حَتَّى يَذْغُو بِدُهْنٍ ، فَيَمْسَحَ بِهِ صَدْرَهُ وَبَطْنَهُ وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ ، ثُمَّ يَتَبَخَّرُ ، لِيَكُونَ أَعْلَقَ
لِلْبَحُورِ !

(من أقوال الحزامي)

وَكَانَ يَقُولُ : حَبَّذَا الشَّتَاءُ ، فَإِنَّهُ يَحْفَظُ عَلَيْكَ رَائِحَةَ الْبَحُورِ ، وَلَا يَحْمُضُ فِيهِ النَّبِيذُ إِنْ تَرِكَ
مَفْتُوحًا ، وَلَا يَفْسُدُ فِيهِ مَرَقٌ إِنْ بَقِيَ أَيَّامًا .

وَكَانَ لَا يَتَبَخَّرُ إِلَّا فِي مَنَازِلِ أَصْحَابِهِ . فَإِذَا كَانَ فِي الضَّيْفِ ، دَعَا بِشَيَاهِ فَلَيْسَهَا عَلَى قَمِيصِهِ ،
لِكَيْلَا يَضِيعَ مِنَ الْبَحُورِ شَيْءٌ .

وَقَالَ مَرَّةً : إِنَّ لِلشَّيْبِ سَهْكَ^(٢) . وَبَيَاضُ الشَّعْرِ هُوَ مَوْتُهُ ، وَسَوَادُهُ حَيَاتُهُ : أَلَا تَرَى أَنَّهُ مَوْضِعُ
دَبْرَةِ الْحَمَارِ الْأَسْوَدِ لَا يُنْبِتُ إِلَّا أُنَيْضُ ! وَالنَّاسُ لَا يَرْضَوْنَ مَيِّتًا فِي هَذَا الْعَشْكَرِ إِلَّا بِالْعِنَاقِ وَاللَّثَامِ ،
وَالطَّيِّبِ غَالٍ ، وَعَادَتُهُ رَدِيئةٌ ! وَيَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ أَيْضًا عِنْدَهُ أَنْ يَحْرُسَهُ وَيَحْفَظَهُ مِنْ عِيَالِهِ . وَإِنَّ
الْعَقَّارَ لَيَحْتِمُهُ عَلَى أَحْصَ غُلَمَانِهِ بِهِ .

فَلَسْتُ أَرَى شَيْئًا هُوَ خَيْرٌ مِنْ اتِّخَاذِ مُشْطِ صَنْدَلٍ^(٣) ؛ فَإِنْ رِيحَهُ طَيِّبَةٌ . وَالشَّعْرُ سَرِيعُ الْقَبُولِ مِنْهُ !
وَأَقْلُ مَا يَصْنَعُ أَنْ يَنْفَى سَهْكَ الشَّيْبِ^(٤) . فِصْرُونَا فِي حَالٍ لَنَا وَلَا عَلَيْنَا .

فَكَانَ عِطْرُ الْحَزَامِيِّ إِلَى أَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا مُشْطَ صَنْدَلٍ ، إِلَّا أَنَّ يُطَيِّبُهُ صَدِيقٌ .

وَاسْتَلَفَ مِنْهُ عَلَى الْأَسْوَارِ مِائَةَ دِرْهَمٍ . فَجَاءَنِي وَهُوَ خَزِينٌ مُنْكَسِرٌ . فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّمَا يَخْزَنُ مَنْ
لَا يَجِدُ بُدًّا مِنْ إِسْلَافِ الصَّدِيقِ ، مَخَافَةَ أَنْ يُزَجَّعَ إِلَيْهِ مَالُهُ ، وَلَا يَقْدِرُ ذَلِكَ هِبَةً مِنْهُ ؛ أَوْ رَجُلٌ يَخَافُ
الشُّكَايَةَ ، فَهُوَ إِنْ لَمْ يُشْلِفْ كَرَمًا ، أَشْلَفَ خَوْفًا . وَهَذَا بَابُ ، الشُّهْرَةُ فِيهِ قُوَّةُ غَيْتِكَ . وَأَنَا وَائِقُ
بَاعْتِزَامِكَ وَتَضْمِيمِكَ ، وَبِقَلَّةِ الْمُبَالَاهِ بِتَبْخِيلِ النَّاسِ لَكَ . فَمَا وَجْهُ انْكِسَارِكَ وَاعْتِمَالِكَ ؟

قَالَ : اللَّهُمَّ غَفِرًا^(٥) ! لَيْسَ ذَلِكَ بِي . إِنَّمَا فَعَى أَتَى قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَطْمَاعَ النَّاسِ قَدْ صَارَتْ بِمَغْزِلِ
عَنِي ، وَآيَسَةٌ مِنِّي ، وَأَتَى قَدْ أَحْكَمْتُ هَذَا الْبَابَ وَأَتَقَنْتُهُ ، وَأَوْدَعْتُ قُلُوبَهُمُ الْيَأْسَ ، وَقَطَعْتُ أَسْبَابَ
الْخَوَاطِرِ . فَارَأَانِي وَاحِدًا مِنْهُمْ ! إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ إِفْلَاسِ الْمَرْءِ طَمَعُ النَّاسِ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا طَمِعُوا فِيهِ

(١) الْفَنَارُ : الدُّخَانُ ذُو الرَّائِحَةِ الْخَاصَّةِ يَنْبَعُ مِنَ الطَّبِيخِ أَوْ الشَّوَاءِ أَوْ الْعِظَمِ الْمَحْرُوقِ أَوْ الْبَحُورِ .

(٢) سَهْكَ : الرَّائِحَةُ الْكَرِيهَةُ . يَقَالُ إِنْ الشَّيْبَ وَالْهَرَمَ يَحْدِثَانِ فِي الْجَسْمِ هَذِهِ الرَّائِحَةَ .

(٣) صَنْدَلٌ : نَوْعٌ مِنَ الْخَشَبِ .

(٤) السَّهْكَ : رِيحٌ كَرِيهَةٌ تَأْتِي مِنَ الْعَرَقِ .

(٥) اللَّهُمَّ غَفِرًا : عِبَارَةٌ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ عَدَمِ فَهْمِ مُخَاطَبَةٍ مَا يَرِيدُهُ .

احْتَالُوا لَهُ الْحَيْلَ ، وَنَصَبُوا لَهُ الشَّرَكَ . وَإِذَا يَشُوا مِنْهُ فَقَدْ أَمِنَ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ مِنْ عَلَى اسْتِضعاف شديد . وما أَشْكُ أَنِّي عِنْدَهُ غُمٌّ ، وَأَنِّي كَبْعُضٍ مَنْ يَأْكُلُ مَالَهُ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا خَلِيطٌ وَعَشِيرٌ .

وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ لَمْ يُعْرِفْنِي ، وَلَمْ يَتَقَرَّرْ عِنْدَهُ مَذْهَبِي ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْجِيرَانِ ؟ بَلْ مَا ظَنُّكَ بِالْمَعَارِفِ ؟ أَرَأَيْتَ أَنْفُخُ فِي غَيْرِ فَخْمٍ ، وَأَقْدَحُ بِزَنْدٍ مُضْلِلٍ ! مَا أَخَوْفَنِي أَنْ أَكُونَ قَدْ قُصِدَ إِلَيَّ بِقَوْلٍ ! مَا أَخَوْفَنِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي سَمَائِهِ قَدْ قَصَدَ إِلَيَّ أَنْ يُفْقِرَنِي !

قَالَ : وَيَقُولُونَ : ثَوْبُكَ عَلَى صَاحِبِكَ أَحْسَنُ مِنْهُ عَلَيْكَ ! فَمَا يَقُولُونَ إِنْ كَانَ أَقْصَرَ مِنِّي ؟ أَلَيْسَ يَتَخَيَّلُ فِي قَمِيصِي ؟ وَإِنْ كَانَ طَوِيلًا جَدًّا ، وَأَنَا قَصِيرٌ جَدًّا فَلَيْسَهُ ، أَلَيْسَ يَصِيرُ آيَةً لِلْسَّائِلِينَ ^(١) ؟ فَمَنْ أَسْوَأُ أَثَرًا عَلَى صَدِيقِهِ مِمَّنْ جَعَلَهُ ضُحْكَةً لِلنَّاسِ ؟ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَكْشُوهُ حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهُ فِيهِ مِثْلِي . وَمَتَى يَتَّفِقُ هَذَا ، وَإِلَى ذَلِكَ مَخِي وَمَمَاتٍ ؟ ^(٢)

وَكَانَ يَقُولُ : أَشْتَهِي اللَّحْمَ الَّذِي قَدْ تَهَرَّأَ ^(٣) ، وَأَشْتَهِي أَيْضًا الَّذِي فِيهِ بَغْضُ الصَّلَاةِ . وَقُلْتُ لَهُ مَرَّةً : مَا أَشْبَهَكَ بِالَّذِي قَالَ : أَشْتَهِي لَحْمَ دَجَاجَتَيْنِ . قَالَ : وَمَا تَصْنَعُ بِذَلِكَ الْقَائِلِ ؟ هُوَ ذَا أَنَا أَشْتَهِي لَحْمَ دَجَاجَتَيْنِ ، وَاحِدَةٍ خِلَاسِيَّةٍ ^(٤) مُسَمَّنَةٍ ، وَأُخْرَى خَوَازِمَ رَخْصَةٍ .

(رِضَاوُهُ بِالْبُخْلِ)

وَقُلْتُ لَهُ مَرَّةً : قَدْ رَضِيتَ بِأَنْ يُقَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بِخِيلٌ ؟ قَالَ : لَا أَغْدَمُنِي اللَّهُ هَذَا الْاسْمَ ! قُلْتُ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ : لَا يَقَالُ : فَلَانٌ بِخِيلٌ إِلَّا وَهُوَ ذُو مَالٍ . فَسَلِّمْ إِلَى الْمَالِ ، وَادْعُنِي بِأَيِّ اسْمٍ شِئْتَ ! قُلْتُ : وَلَا يَقَالُ أَيْضًا : فَلَانٌ سَخِيٌّ إِلَّا وَهُوَ ذُو مَالٍ . فَقَدْ جَمَعَ هَذَا الْاسْمُ الْحَمْدَ وَالْمَالَ ، وَاسْمُ الْبُخْلِ يَجْمَعُ الْمَالَ وَالذَّمَّ . فَقَدْ أَخَذْتَ أَحْسَنَهُمَا وَأَوْضَعَهُمَا . قَالَ : وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ . قُلْتُ : فَهَاتِهِ . قَالَ : فِي قَوْلِهِمْ : بِخِيلٌ ، تَثْبِيتٌ لِإِقَامَةِ الْمَالِ فِي مِلْكِهِ . وَفِي قَوْلِهِمْ : سَخِيٌّ ، إِخْبَارٌ عَنْ خُرُوجِ الْمَالِ مِنْ مِلْكِهِ . وَاسْمُ الْبُخْلِ اسْمٌ فِيهِ حِفْظٌ وَذَمٌّ ، وَاسْمُ السَّخِيِّ اسْمٌ فِيهِ تَضْيِيعٌ وَحَمْدٌ . وَالْمَالُ زَاهِرٌ نَافِعٌ ، مُكْرِمٌ لِأَهْلِهِ مُعِزٌّ . وَالْحَمْدُ رِيحٌ وَسُخْرِيَّةٌ ، وَاسْتِغْنَاؤُكَ لَهُ ضَعْفٌ وَفُسُؤَةٌ ^(٥) . وَمَا أَقْلُ غِنَاءَ الْحَمْدِ وَاللَّهُ عَنْهُ ، إِذَا جَاعَ بَطْنُهُ ، وَغَرِيَ جِلْدُهُ ، وَضَاعَ عِيَالُهُ ، وَشِمِتَ بِهِ مَنْ كَانَ يَخْشُدُهُ ^(٦) !

(الْحِزَامِيُّ يَرْفُضُ الْأَخْذَ)

وَكُنَّا عِنْدَ دَاوُدَ بْنِ أَبِي دَاوُدَ بَوَاسِطَ ، أَيَّامَ وَلَايَةِ كَشْكَرَ ! فَأَتَتْهُ مِنَ الْبَصْرَةِ هَدَايَا فِيهَا زِقَاقٌ دِيسٍ ^(٧) . فَقَسَمَهَا يَتْنًا . فَكُلُّ مَا أَخَذَ مِنْهَا الْحِزَامِيُّ أُعْطِيَ غَيْرَهُ . فَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ مِنْ مَذْهَبِهِ ، وَلَمْ

(١) السَّابِلُونَ : الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي الطَّرِيقَاتِ فِي حَوَائِجِهِمْ . (٢) انْظُرِ الْعَقْدَ الْفَرِيدَ (٦/١٥٤) .

(٣) تَهَرَّأَ : نَضَجَ حَتَّى سَقَطَ عَنِ الْعَظْمِ . (٤) خِلَاسِيَّةٌ : أَتِيَّةٌ مِنْ دِيكٍ هِنْدِيٍّ ، وَدَجَاجَةٌ فَارْسِيَّةٌ أَوْ الْعَكْسُ .

(٥) فُسُؤَةٌ : قِلَّةُ الْمَرْوَةِ وَضَعْفُ الرَّأْيِ . (٦) انْظُرِ الْعَقْدَ الْفَرِيدَ (٦/١٥٤) .

(٧) زِقَاقٌ دِيسٌ : الزِقَاقُ جَمْعُ زَقٍّ وَهُوَ مَا يَشْبُهُ السَّقَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيسُ فَهُوَ عَسَلُ النَّمْرِ .

أَعْرِفْ جَهَّةَ تَذِيرِهِ . فَقُلْتُ لِلْمَكِّيِّ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْحِزَامِيَّ إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِعْطَاءِ ، وَهُوَ عَدُوَّةٌ . فَأَمَّا الْأَخْذُ فَهُوَ ضَالُّهُ وَأُمْنِيَّتُهُ ! وَإِنَّهُ لَوْ أُعْطِيَ أَقَاعِي سِجِسْتَانًا ، وَنَعَائِي مِصْرَ ، وَحِثَابَ الْأَهْوَازِ ، لَأَخَذَهَا ، إِذَا كَانَ اسْمُ الْأَخْذِ وَإِقْعَا عَلَيْهَا ! فَعَسَاةُ أَرَادَ التَّفْضِيلَ فِي الْقِسْمَةِ . قَالَ : أَنَا كَاتِبُهُ ، وَصَدَاقَتِي أَقْدَمُ . وَمَا ذَلِكَ بِهِ . وَإِنْ هَا هُنَا أَمْرًا مَا تَقَعُ عَلَيْهِ .

فَلَمْ يَلِيْثْ أَنْ دَخَلَ عَلَيْنَا . فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ . فَتَعَصَّرَ قَلِيلًا . ثُمَّ تَبَاخَ بِسُرِّهِ . قَالَ : وَضِيعَتُهُ أَضْعَافُ رِبْحِهِ . وَأَخْذُهُ عِنْدِي مِنْ أَشْبَابِ الْإِدْبَارِ . قُلْتُ : أَوَّلُ وَضَائِعِهِ احْتِمَالُ الشُّكْرِ . قَالَ : هَذَا لَمْ يَخْطُرْ لِي قَطُّ عَلَى بَالٍ . قُلْتُ : فَهَاتِ إِذَا مَا عِنْدَكَ .

قَالَ : أَوَّلُ ذَلِكَ كِرَاءُ الْحِمَالِ . ثُمَّ هُوَ عَلَى خَطَرٍ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى الْمَنْزِلِ . فَإِذَا صَارَ إِلَى الْمَنْزِلِ ، صَارَ سَبَبًا لَطَلِبِ الْعَصِيدَةِ وَالْأَزْرِ وَالْبِسْتَنْدُودِ^(١) . فَإِنْ يَبْعَثُهُ فِرَارًا مِنْ هَذَا صِيرْتُه شُهْرَةً ، وَتَرْكْتُه مُنَى عِنْدَهُ آيَةً . وَإِنْ أَنَا حَبَشْتُهُ ذَهَبَ فِي الْعَصَائِدِ وَأَشْبَاهِ الْعَصَائِدِ . وَجَذَبَ ذَلِكَ شِرَاءَ الشَّمَنِ ، ثُمَّ جَذَبَ السَّمْنَ غَيْرَهُ ، وَصَارَ هَذَا الدُّبْسُ أَضَرَّ عَلَيْنَا مِنَ الْعِيَالِ .

وَإِنْ أَنَا جَعَلْتُهُ نَبِيذًا ، احْتَجْتُ إِلَى كِرَاءِ الْقُدُورِ ، وَإِلَى شِرَاءِ الْحُبِّ ، وَإِلَى شِرَاءِ الْمَاءِ ، وَإِلَى كِرَاءِ مَنْ يُوقِدُ تَحْتَهُ ، وَإِلَى التَّفْرِغِ لَهُ . فَإِنْ وَلِيْتُ ذَلِكَ الْخَادِمَ اسْوَدَّ ثَوْبُهَا ، وَعَرِمْنَا ثَمَنَ الْأَشْنَانِ وَالصَّابُونِ ، وَازْدَادَتْ فِي الطَّمْعِ ، عَلَى قَدْرِ الزِّيَادَةِ فِي الْعَمَلِ . فَإِنْ فَسَدَ ذَهَبُ الثَّقَفَةِ بَاطِلًا ، وَلَمْ نَسْتَخْلَفْ مِنْهَا عَوَضًا ، بَوَّجَهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . لِأَنَّ خَلَّ الدَّاذِيَّ^(٢) يَخْضِبُ اللَّحْمَ ، وَيُغَيِّرُ الطَّعْمَ ، وَيُسَوِّدُ الْمَرْقَ ، وَلَا يَضْلُحُ إِلَّا لِلْاضْطِبَاحِ . وَهَذَا إِذَا اسْتَحَالَ خَلًّا . وَكَثُرَ ذَلِكَ أَنْ يَحُولَ عَنِ النَّبِيذِ ، وَلَا يَصِيرَ إِلَى الْخَلِّ . وَإِنْ سَلِمَ - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ ! - وَجَادَ وَصَفًا ، لَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ شُرْبِهِ ، وَلَمْ تَطِيبْ أَنْفُسُنَا بِتَرْكِهِ .

فَإِنْ قَعَدْتُ فِي الْبَيْتِ أَشْرَبْتُ مِنْهُ ، لَمْ يُمْكِنُ إِلَّا بِتَرْكِ سُلَافِ^(٣) الْفَارَسِيِّ الْمُعَسَّلِ ، وَالدَّجَاجِ الْمُسَمَّنِ ، وَجِدَاءِ كَسْكَرٍ ، وَفَاكِهَةِ الْجَبَلِ ، وَالثَّقَلِ الْهَشِّ^(٤) ، وَالزُّيْحَانِ الْعَصُ ، عِنْدَ مَنْ لَا يَغِيضُ مَالَهُ ، وَلَا تَنْقَطِعُ مَادَّتُهُ ، وَعِنْدَ مَنْ لَا أَبَالِي عَلَى أَيْ قَطْرَتِهِ سَقَطَ ؛ مَعَ قُوَّةِ الْحَدِيثِ الْمُؤْنِسِ ، وَالسَّمَاعِ الْحَسَنِ .

وَعَلَى أَنِّي إِنْ جَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ أَشْرَبُهُ ، لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنْ وَاحِدٍ . وَذَلِكَ الْوَاحِدُ لَا يَدُّ لَهُ مِنْ دُرْنِهِمْ لَحْمٍ ، وَمِنْ طَشُوجِ^(٥) نَقْلٍ ، وَقِيْرَاطِ زَنْحَانٍ ؛ وَمِنْ أَنْزَارِ لِيْلَقْدَرٍ ، وَمِنْ حَطَبِ اللَّوْقُودِ . وَهَذَا كُلُّهُ غُرْمٌ . وَهُوَ بَعْدَ هَذَا شَوْمٌ وَخُرُفَةٌ . وَخُرُوجٌ مِنَ الْعَادَةِ الْحَسَنَةِ .

(١) الْبِسْتَنْدُودُ : نَوْعٌ مِنَ الْفَطِيرِ ، وَهُوَ فَارَسِيٌّ .

(٢) الدَّاذِيُّ : شِرَابُ الْفَسَاقِ ، وَهُوَ الْخَمْرُ . (٣) سُلَاقُ الْفَارَسِيِّ : الْخَمْرُ الْفَارَسِيَّةُ .

(٤) الْهَشُّ : الطَّرِيُّ النَّاعِمُ ؛ لِأَنَّ الْهَشَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا فِيهِ رَخَاوَةٌ وَلِينٌ .

(٥) طَشُوجٌ : هُوَ رُبْعُ الدَّانِقِ ، وَالدَّانِقُ سُدُسُ الدَّرْهِمِ .

فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ النَّدِيمُ غَيْرَ مُوَافِقٍ ، فَأَهْلُ الْحَبْسِ أَحْسَنُ حَالًا مِنِّي . وَإِنْ كَانَ - وَأَعُوذُ بِاللَّهِ ! مُوَافِقًا ، فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى مَالِي بَابًا مِنَ التَّلَفِ ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَسِيرُ فِي مَالِي كَسْتِيرِي فِي مَالِ مَنْ هُوَ فَوْقِي .

وَإِذَا عَلِمَ الصَّدِيقُ أَنَّ عِنْدِي دَاذِيًّا أَوْ نَبِيذًا ، دَقَّ الْبَابَ دَقَّ الْمِدْلُ . فَإِنْ حَاجَبْنَاهُ فَبَلَاءٌ ، وَإِنْ أَدَخَلْنَاهُ فَشَقَاءٌ . وَإِنْ بَدَأَ لِي فِي اسْتِخْصَانِ حَدِيثِ النَّاسِ كَمَا يَسْتَحْسِنُ مِنِّي مَنْ أَكُونُ عِنْدَهُ ، فَقَدْ شَارَكَتُ الْمُسْرِفِينَ ، وَفَارَقْتُ إِخْوَانِي مِنَ الْمُضْلِحِينَ ، وَصَرْتُ مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ .

فَإِذَا صِرْتُ كَذَلِكَ ، فَقَدْ ذَهَبَ كَسْبِي مِنْ مَالٍ غَيْرِي ، وَصَارَ غَيْرِي يَكْتَسِبُ مِنِّي . وَأَنَا لَوْ اثْبَلْتُ بِأَحَدِهِمَا لَمْ أَقُمْ لَهُ ، فَكَيْفَ إِذَا اثْبَلْتُ بِأَنْ أُعْطِيَ وَلَا أَخَذَ ! أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ بَعْدَ الْعِصْمَةِ ، وَمِنَ الْخَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ^(١) ! لَوْ كَانَ هَذَا فِي الْحَدَاثَةِ كَانَ أَهْوَنَ .

هَذَا الدُّوْشَابُ دَسِيسٌ مِنَ الْخَوْفَةِ ، وَكَيْدٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَخُدْعَةٌ مِنَ الْحَسُودِ ! وَهُوَ الْحَلَاوَةُ الَّتِي تُغَيِّبُ الْمَرَارَةَ ! مَا أَخَوْفَنِي أَنْ يَكُونَ أَبُو سُلَيْمَانَ قَدْ مَلَّ مُتَادِمَتِي ، فَهُوَ يَخْتَالُ لِي الْحَيْلُ^(٢) !

(الجزامي أبخل أصحابنا)

وَكُنَّا مَوْءَةً فِي مَوْضِعٍ حِشْمِيَّةٍ ، وَفِي جَمَاعَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَالْقَوْمُ سُكُوتٌ ، وَالْمَجْلِسُ كَبِيرٌ ، وَهُوَ بَعِيدُ الْمَكَانِ مِنِّي . وَأَقْبَلَ عَلَيَّ الْمَكِّيُّ وَقَالَ ، وَالْقَوْمُ يَسْمَعُونَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا عُثْمَانَ ، مَنْ أَبْخَلُ أَصْحَابِنَا ؟ قُلْتَ : أَبُو الْهَذِيلِ . قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قُلْتَ : صَاحِبُ لَنَا لَا أَسْمِيهِ . قَالَ الْجَزَامِيُّ مِنْ بَعِيدٍ : إِنَّمَا يَغْنِينِي ! ثُمَّ قَالَ : حَسَدْتُمْ لِلْمُقْتَصِدِينَ تَذْيِيرَهُمْ ، وَنَمَاءَ أَمْوَالِهِمْ ، وَدَوَامَ نِعْمَتِهِمْ . فَالْتَمَسْتُمْ تَهْجِينَهُمْ بِهَذَا اللَّقَبِ ، وَأَدْخَلْتُمْ الْمَكْرَ عَلَيْهِمْ بِهَذَا النَّبْزِ . تَظْلِمُونَ الْمُثْلِفَ لِمَالِهِ بِاسْمِ الْجُودِ ، إِدَارَةً لَهُ عَنْ شَيْنِهِ ، وَتَظْلِمُونَ الْمُضْلِحَ لِمَالِهِ بِاسْمِ الْبُخْلِ ، حَسَدًا مِنْكُمْ لِنِعْمَتِهِ . فَلَا الْمَفْسِدُ يَنْجُو ، وَلَا الْمُضْلِحُ يَسْلَمُ .

(القسري يعتذر عن الاتهام بالبخل)

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : بَلَغَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ^(٣) أَنَّ النَّاسَ يَرْمُونَهُ بِالْبُخْلِ عَلَى الطَّعَامِ . فَتَكَلَّمَ يَوْمًا ، فَمَا زَالَ يُذْخِلُ كَلَامًا فِي كَلَامٍ ، حَتَّى أَدْخَلَ الْاِغْتِدَارَ مِنْ ذَلِكَ فِي غُرُضِ كَلَامِهِ . فَكَانَ مِمَّا اخْتَجَّ بِهِ فِي شِدَّةِ رُؤْيَةِ الْأَكِيلِ عَلَيْهِ ، وَفِي ثُغُورِهِ مِنْهُ ، أَنْ قَالَ : نَظَرَ خَالِدُ الْمَهْزُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمًا إِلَى نَاسٍ يَأْكُلُونَ ، وَإِلَى إِبْلِ تَجْتَرُّ . فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَتَرَوْنِي بِمِثْلِ هَذِهِ الْعَيْنِ الَّتِي أَرَى بِهَا النَّاسَ وَالْإِبِلَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَحَلَفَ بِاللَّهِ أَلَّا يَأْكُلَ بَقْلًا ، وَإِنْ مَاتَ هَزَالًا .

(٢) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٧٣ - ٢٧٥) .

(١) الحور بعد الكور : أى النفس بعد الزيادة .

(٣) خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَسَدِ الْقَسْرِيِّ ، بِمَعْنَى الْأَصْلِ . أَحَدُ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ وَأَجُودِهِمْ . وَلِيَ مَكَّةَ سَنَةَ ٨٩ هـ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ثُمَّ وَلَاهُ هِشَامُ الْعَرَقِينَ سَنَةَ ١٠٥ هـ . وَقَدَرَمَى بِالزُّنْدَقَةِ فِي عَهْدِ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ . الْأَعْلَامُ (٢/ ٢٩٧) .

وكان يَتَغَذَّى اللَّبَنَ ، وَيُصِيبُ مِنَ الشَّرَابِ . فَأَضْمَرَهُ ذَلِكَ وَأَيْسَهُ . فَلَمَّا دَقَّ جِشْمُهُ ، وَاشْتَدَّ هَزَالُهُ ، سُمِّيَ الْمَهْزُولَ . ثُمَّ قَالَ خَالِدٌ : هَآنَذَا مُبْتَلَى بِالْمَضْغِ ، وَمَحْمُولٌ عَلَى تَخْرِيكِ اللَّحْيَتَيْنِ ، وَمُضْطَّرٌ إِلَى مُنَاسِبَةِ الْبِهَائِمِ ^(١) ، وَمُخْتَمِلٌ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الشَّخْفِ وَالْعَجْزِ . مَا أَبَالِي ! احْتَمَلْتُهُ فِيمَنْ (لَيْسَ) لِي مِنْهُ بُدٌّ ، وَلِي عَنْهُ مَذْهَبٌ . لِيَأْكُلَ كُلُّ امْرِئٍ فِي مَنْزِلِهِ ، وَفِي مَوْضِعِ أَمْنِهِ وَأَتْيِهِ ، وَدُونَ سِتْرِهِ وَبَابِهِ .

هَذَا مَا بَلَّغْنَا عَنْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَاجْتِنَاجِهِ . فَأَمَّا خَالِدُ الْمَهْزُولُ فَهُوَ أَحَدُ الْخَالِدِينَ . وَهُمَا سَيِّدَا بَنِي أَسَدٍ . وَفِيهِ وَفِي خَالِدِ بْنِ نَضْلَةَ يَقُولُ الْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرُ :

وَقَبْلَكَ مَاتَ الْخَالِدَانِ كِلَاهُمَا عَمِيدُ بَنِي حَجْوَانَ وَابْنُ الْمُضَلَّلِ ^(٢)

(قِصَّةُ الْخَارِثِيِّ)

وَقِيلَ لِلْخَارِثِيِّ بِالْأَمْسِ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَضَعُ الطَّعَامَ فَتُجِدُهُ ، وَتَغْظُمُ عَلَيْكَ الثَّقَفَةُ ، وَتُكَيِّرُ مِنْهُ . وَإِنَّكَ لَتَعَالَى بِالْحَبَّازِ وَالطَّبَاحِ وَالشَّوَاءِ وَالْحَبَاصِ ^(٣) . ثُمَّ أَنْتَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا تُشْهِدُهُ عَدُوًّا لَتَقْعُهُ ، وَلَا وَلِيًّا فَتَسْرُهُ ، وَلَا جَاهِلًا لَتُغْرِفَهُ ، وَلَا زَائِرًا لَتُعْظِمَهُ ، وَلَا شَاكِرًا لَتُثَبِّتَهُ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ (أَنَّهُ) حِينَ يَتَنَحَّى مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ ، وَيَغِيبُ عَنْ عَيْنَيْكَ ، فَقَدْ صَارَ نَهْنًا مُقْشَمًا ، وَمُتَوَزِّعًا مُسْتَهْلَكًا . فَلَوْ أَحْضَرْتَهُ مَنْ يَنْفَعُ شُكْرُهُ ، وَيَنْفَى عَلَى الْأَيْثَامِ ذِكْرُهُ ، وَمَنْ يُفْتِعِلُكَ بِالْحَدِيثِ الْحَسَنِ وَالِاسْتِمَاعِ ، وَمَنْ يَتَمَتَّدُ بِهِ الْأَكْلُ ، وَيُقْضَرُ بِهِ الدَّهْرُ - لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى بِكَ ، وَأَشْبَهَ بِالَّذِي قَدَّمْتَهُ يَدَكَ .

وَبَعْدُ فَلِمَ تُبَيِّحُ مَضُونَ الطَّعَامِ لِمَنْ لَا يَحْمَدُكَ ؟ وَمَنْ إِنْ حَمَدَكَ لَمْ يُحْسِنِ أَنْ يَحْمَدَكَ ؟ وَمَنْ لَا يَفْصِلُ بَيْنَ الشَّهْوَى الْعَذِي ، وَبَيْنَ الْعَلِيظِ الرَّهْمِ ؟

قَالَ : يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ أَبُو الْفَاتِكِ . قَالُوا : وَمَنْ أَبُو الْفَاتِكِ ؟ قَالَ : قَاضِي الْفَتَيَانِ . وَأُنِّي لَمْ أَكُلْ مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا رَأَيْتُ مِنْهُ بَغْضَ مَا دَمْتُ ، وَبَعْضَ مَا شَعْتُ وَقَبِيحَهُ فَشِيءٌ يَقْبُحُ بِالشُّطَارِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ إِذَا كَانَ فِي أَصْحَابِ الْمُرُوءَاتِ وَأَهْلِ الْبَيُوتَاتِ ؟

قَالُوا : فَمَا قَالَ أَبُو الْفَاتِكِ ؟ قَالَ : قَالَ أَبُو الْفَاتِكِ : الْفَتَى لَا يَكُونُ نَشَافًا ، وَلَا نَشَالًا ، وَلَا مِزْسَالًا ، وَلَا لَكَامًا ، وَلَا مَصَاصًا ، وَلَا نَفَاصًا ، وَلَا دَلَاكًا ، وَلَا مَقْوَرًا ، وَلَا مَغْرِبَلًا ، وَلَا مُحَلِقِمًا ، وَلَا مَسَوِّغًا ، وَلَا مُبْلَعِمًا ، وَلَا مُحْضَرًا .

(١) البهائم : هذه المناسبة وتلك المشابهة هي المضغ .

(٢) حَجْوَانَ : اسم رجل من بني أسد وابن المضلل : هو خالد المهزول - والبيت للأسود في الصحيح المعبر (٣٠٦) برواية :

• فَقَتَلْنِي مَاتَا الْخَالِدَانِ كِلَاهُمَا •

وفي اللسان (جحا) برواية صاحب البخلاء ، ورواية ابن بَرَزٍ ، مصوبًا :

• فَقَتَلْنِي مَاتَ الْخَالِدَانِ •

(٣) الْخَبَاصُ : صانِعُ الْخَيْصِ ، وَهِيَ الْخُلُوءُ الْمَخْبُوضَةُ مِنَ الثَّمَرِ وَالسَّمَنِ .

فَكَيْفَ لَوْ رَأَى أَبُو الْفَاتِكِ اللَّطَّاعَ، وَالْقَطَّاعَ، وَالثَّهَّاشَ، وَالْعَدَّادَ، وَالْدَّفَاعَ، وَالْمُحَوَّلَ !
واللهُ إِنِّي لأَفْضَلُ الدَّهَّاقِينَ^(١) حِينَ عَابُوا الْحَسَنَ، وَتَقَرَّزُوا مِنَ التَّعْرِيقِ^(٢)، وَبَهَرَجُوا صَاحِبَ
التَّمْشِيشِ^(٣) وَحِينَ أَكَلُوا بِالْبَارِجِينَ، وَقَطَّعُوا بِالسَّكِينِ، وَلَزِمُوا عِنْدَ الطَّعَامِ السَّكَنَةَ، وَتَرَكُوا
الْحَوْضَ، وَاخْتَارُوا الزَّمْزَمَةَ^(٤).
أَنَا وَاللَّهِ أَخْتَمِلُ الضَّيْفَ وَالضَّيْفَيْنِ، وَلَا أَخْتَمِلُ اللَّغْمُوظَ^(٥) وَلَا الْجَزْدَبِيلَ^(٦). وَالْوَاغِلُ^(٧) أَهْوَنُ
عَلَيَّ مِنَ الرَّائِشِ^(٨).

وَمَنْ يَشْكُ أَنَّ الْوَحْدَةَ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ؟ وَأَنْ جَلِيسَ السُّوءِ خَيْرٌ مِنْ أَكِيلِ السُّوءِ؟ لِأَنَّ كُلَّ
أَكِيلِ جَلِيسٍ، وَلَيْسَ كُلُّ جَلِيسٍ أَكِيلًا.

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْمُؤَاكَلَةِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْمُشَارَكَةِ، فَمَعَ مَنْ لَا يُسْتَأْذَنُ عَلَى الْمُخِّ، وَلَا يَنْتَهَزُ بَيْضَةَ
الْبَقِيلَةِ، وَلَا يَلْتَهِمُ كَبِدَ الدَّجَاجَةِ، وَلَا يُيَادِرُ إِلَى دِمَاحِ رَأْسِ السَّلَاقَةِ^(٩)، وَلَا يَخْطِطُ كُلِّيَّةَ الْجَدْيِ،
وَلَا يَزْدَرِدُ فَايِصَةَ الْكُرْكُمِيِّ، وَلَا يَنْتَرِعُ شَاكِلَةَ الْحَمَلِ، وَلَا يَقْطِيعُ سُورَةَ الشَّصْرِ^(١٠)، وَلَا يَغْرُضُ لُغْيُونَ
الرُّؤُوسِ، وَلَا يَسْتَوِلِي صُدُورَ الدَّجَاجِ، وَلَا يُسَابِقُ إِلَى أَشْقَاطِ الْفِرَاحِ، وَلَا يَتَنَاوَلُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا
يُلَاحِظُ مَا بَيْنَ يَدَيْ غَيْرِهِ، وَلَا يَتَشَهَّى الْغَرَائِبَ، وَلَا يَمْتَنِحُ الْإِخْوَانَ بِالْأُمُورِ الثَّمِينَةِ، وَلَا يَهْتِكُ أَسْتَارَ
النَّاسِ: بَأَنْ يَتَشَهَّى مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مُوجُودًا.

وَكَيْفَ تَضْلُعُ الدُّنْيَا، وَكَيْفَ يَطِيبُ الْعَيْشُ، مَعَ مَنْ إِذَا رَأَى جُزُورِيَّةَ التَّقَطِّ الْأَكْبَادَ وَالْأَسْنِمَةَ؟
وَإِذَا عَايَنَ بَقْرِيَّةَ اسْتَوَلَى عَلَى الْعُرُقِ وَالْقِطْنَةِ^(١١)؟ وَإِنْ أَتَوْا بِجَنْبِ شِوَاءٍ اكْتَسَحَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ؟ لَا
يَرَحِمُ ذَا سِنٍّ لِيَضْعِفَهُ، وَلَا يَرِيقُ عَلَى حَدِيثٍ لِحِدَّةِ شَهْوَتِهِ، وَلَا يَنْظُرُ لِلْعِيَالِ، وَلَا يُبَالِي كَيْفَ دَارَتْ
بِهِمُ الْحَالُ - وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، فَمَعَ مَنْ لَا يَجْعَلُ نَصِيئَتِهِ فِي مَالِي أَكْثَرَ مِنْ نَصِيئِي.

وَأَشَدُّ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفْنَا، وَأَخْبَثُ مِنْ كُلِّ مَا عَدَدْنَا، أَنَّ الطَّبَّاعَ رُبَّمَا أَتَى بِاللُّوْنِ الطَّرِيفِ، وَرَبَّمَا
قَدَّمَ الشَّيْءَ الْغَرِيبَ، وَالْعَادَةَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللَّوْنِ أَنْ يَكُونَ لَطِيفَ الشَّخْصِ، صَغِيرَ الْحَجْمِ، وَلَيْسَ
كَالطَّفِيشِيَّةِ^(١٢)، وَلَا كَالْهَرِيسَةِ، وَلَا كَالْمُجَلِّيَّةِ، وَلَا كَالْكُرْنِيَّةِ، وَرَبَّمَا عَجَلَ عَلَيْهِ، فَقَدَّمَهُ حَارًّا
مُتَمَتِّعًا. وَرَبَّمَا كَانَ مِنْ جَوْهَرٍ بَطِيءِ الْفُتُورِ، وَأَصْحَابِي فِي سَهُولَةِ ائْزِدْرَاءِ الْحَارِّ عَلَيْهِمْ فِي طِبَاعِ
النَّعَامِ، وَأَنَا فِي شِدَّةِ الْحَارِّ عَلَى فِي طِبَاعِ السَّبَاعِ. فَإِنْ انتَظَرْتُ إِلَيَّ أَنْ يُمَكِّنَ أَتَوَا عَلَى آخِرِهِ. وَإِنْ

(١) الدهاقين: جمع دهقان، وهو رئيس القرية.

(٢) التعريق: استخراج المخ من المعظم.

(٣) التمشيش: استخراج المخ من المعظم.

(٤) الزمزمة: صوت في الحلق والخشوم من غير لسان ولا شفة.

(٥) اللغموظ: المتطفل النهم الشره.

(٦) الجزدبيل: هو الذي يأكل باليمين بعد أن يأخذ الكسرة باليسرى، فإذا فنى ما بأيدي الأكلين أكل ما في يده اليسرى.

(٧) الواغل: الداخل على طعام القوم وشرابهم من غير دعوة.

(٨) الرائش: المتشمم للطعام، ويقال له: الطفيلي.

(٩) السلافة: نوع من الطير.

(١٠) الشصير: الذي قد قوى وتحرك من الظباء.

(١١) القطننة: هي مثل الرمانة، وهي تكون مع الكرش، وهي ذات الأطباق.

(١٢) الطفيشية: هي طعام مجهز بمرق.

بَذَرْتُ مَخَافَةَ الْقَوْتِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَشَارِكَهُمْ فِي بَغْضِهِ لَمْ آمَنْ صَرَرَهُ . وَالْحَارُ رَبَّمَا قَتَلَ ، وَرَبَّمَا أَغْقَمَ ، وَرَبَّمَا أَبَالَ الدَّمَ .

(مع سمكة عجبية)

ثُمَّ قَالَ : هَذَا عَلَيَّ الْأَشْوَارُ أَيْ أَكَلْتُ مَعَ عِيسَى بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ . فَوَضَعْتُ قَدَامَهُمْ سَمَكَةً عَجَبِيَّةً ، فَايَقَةُ السَّمَنِ . فَحَاطَ بَطْنُهَا لَحْظُهُ ، فَإِذَا هُوَ يَكْتَنِزُ شَخْصًا ، وَقَدْ كَانَ غَصُّ بَلْقَمَةٍ ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَشْقِ . فَفَرَّغَ مِنَ الشَّرَابِ ، وَقَدْ غَرَفَ مِنْ بَطْنِهَا كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بَلْقَمَتَهُ غَرْفَةً . وَكَانَ عِيسَى يَنْتَجِبُ الْأَكْلَةَ ، وَيَخْتَارُ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْهُومٍ فِيهِ ، وَمَقْتُونٍ بِهِ .

فَلَمَّا خَافَ عَلَيَّ الْأَشْوَارُ الْإِخْفَاقَ ، وَأَشْفَقَ مِنَ الْقَوْتِ ، وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ إِلَيْهِ عِيسَى ، اسْتَلَبَ مِنْ يَدِهِ اللَّقْمَةَ بِأَسْرَعٍ مِنْ خَطْفَةِ الْبَازِي وَانْجَدَّارِ الْفَقَابِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ أَكَلَ عِنْدَهُ قَبْلَ مَرَّتِهِ . فَقِيلَ لَهُ : وَيْحَكَ ! اسْتَلَبْتَ لَقْمَةَ الْأَمِيرِ مِنْ يَدِهِ ، وَقَدْ رَفَعَهَا إِلَيْهِ ، وَشَخَا لَهَا فَاهُ^(١) ، مِنْ غَيْرِ مُؤَانَسَةٍ وَلَا مُنَازَحَةٍ سَالِفَةٍ ! .

قَالَ : لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَكَذَّبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ! وَلَكِنَّا أَهْوَيْنَا أُيْدَيْنَا مَعًا ، فَوَقَعَتْ يَدِي فِي مُقَدِّمِ الشَّخْمَةِ ، وَوَقَعَتْ يَدُهُ فِي مُؤَخَّرِ الشَّخْمَةِ مَعًا ، وَالشَّخْمُ مُلْتَبِسٌ بِالْأَمْعَاءِ . فَلَمَّا رَفَعْنَا أُيْدَيْنَا مَعًا ، كُنْتُ أَنَا أَسْرَعَ حَرَكَةً ، وَكَانَتْ الْأَمْعَاءُ مُتَّصِلَةً غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ . فَتَحَوَّلَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ فِي لُقْمَتِهِ بِتِلْكَ الْجَذْبَةِ إِلَى لُقْمَتِي ، لِاتِّصَالِ الْجِنْسِ بِالْجِنْسِ ، وَالْجَوْهَرِ بِالْجَوْهَرِ .

وَأَنَا كَيْفَ أَؤَاكُلُ أَقْوَامًا يَصْنَعُونَ هَذَا الصَّنِيعَ ، ثُمَّ يَخْتَجُّونَ لَهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُجَجِ؟

(مشورتكم غير مقبولة)

ثُمَّ قَالَ : إِنَّكُمْ تُشِيرُونَ عَلَيَّ بِمَلَاسِيَةِ شِرَارِ الْخَلْقِ ، وَأَنْذَالِ النَّاسِ ، وَبِكُلِّ عِيَابٍ مُتَعَتِّبٍ ، وَوُثَابٍ عَلَى أَغْرَاضِ النَّاسِ مُتَسَرِّعٍ . وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَزُضُوا (إِلَّا) أَنْ يَدْعُوهُمْ النَّاسُ ، وَلَا يَدْعُوا النَّاسَ ، وَأَنْ يَأْكُلُوا ، وَلَا يُطْعِمُوا ، وَأَنْ يَتَحَدَّثُوا عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَبْأَلُونَ أَنْ يَتَحَدَّثَ عَنْهُمْ . وَهِيَ شَرَارُ النَّاسِ .

ثُمَّ قَالَ : أَجْلَسَ مُعَاوِيَةُ ، وَهُوَ فِي مَرْتَبَةِ الْخِلَافَةِ ، وَفِي السَّطْحِ^(٢) مِنْ قُرَيْشٍ ، وَفِي بُيُوتِ الْهَيْمَةِ ، وَاصَابَةِ الرَّأْيِ ، وَجُودَةِ الْبَيَانِ ، وَكَمَالِ الْجِسْمِ ، وَفِي تَمَامِ النَّفْسِ عِنْدَ الْجَوْلِيَةِ ، وَعِنْدَ تَقْصِيفِ الرُّمَاحِ ، وَتَقْطِيعِ الشُّيُوفِ - رَجُلًا عَلَى مَا يَدَّيْهِ ، مَجْهُولُ الدَّارِ ، غَيْرُ مَغْرُوفِ النَّسَبِ ، وَلَا مَذْكُورِ يَوْمِ صَالِحٍ . فَأَبْصَرَ فِي لُقْمَتِهِ شَعْرَةً ، فَقَالَ : خِذِ الشَّعْرَةَ مِنْ لُقْمَتِكَ . (وَلَا وَجْهَ لِهَذَا الْقَوْلِ إِلَّا مَخْضُ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ) . فَقَالَ الرَّجُلُ : وَإِنَّكَ لَتُرَاعِنِي مُرَاعَاةً مَنْ يُصَيِّرُ مَعَهَا الشَّعْرَةَ ! لَا جِلْسْتُ

(١) شَخَا لَهَا فَاهُ : أَيْ فَتَحَهَا . (٢) السَّطْحُ : الذَّرْوَةُ .

لَكَ عَلَى مَائِدَةٍ مَا حَيْثُ ، وَلَا حَكِيمُهَا عَنْكَ مَا بَقِيَتْ !

فَلَمْ يَذَرِ النَّاسُ أُمَّ أَمْرِي مُعَاوِيَةَ كَانَ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ : تَعَاَفَلَهُ عَنْهُ ، أَمْ شَفَقْتَهُ عَلَيْهِ ؟ فَكَانَ هَذَا جَزَاءَهُ مِنْهُ ، وَشُكْرُهُ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : وَكَيْفَ أَطْعِمُ مَنْ إِنْ رَأَيْتُهُ يُقْصِرُ فِي الْأَكْلِ ، فَقُلْتُ لَهُ : كُلْ وَلَا تُقْصِرْ فِي الْأَكْلِ ، قَالَ : يَفْطِنُ لِفَضْلِ مَا بَيْنَ التَّقْصِيرِ وَغَيْرِهِ ! وَإِنْ قَصُرَ فَلَمْ أَنْشُطْهُ وَلَمْ أَحْثِهِ ، قَالَ : لَوْلَا أَنَّهُ وَافَقَ هَوَاهُ ! ثُمَّ قَالَ : وَمَدَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يَدَهُ إِلَى صَاحِبِ الشَّرَابِ يَسْتَشْقِيهِ ، وَهُوَ عَلَى خُورَانِ الْمُهْلَبِ ، فَلَمْ يَرَهُ الشَّاقِي ، فَلَمْ يَفْطِنْ لَهُ . فَفَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَالْمُهْلَبُ يَرَاهُ ، وَقَدْ أَمْسَكَ عَنِ الْأَكْلِ ، إِلَى أَنْ يُسَيِّغَ لِقَمَّتَهُ بِالشَّرَابِ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى الْمُهْلَبِ ، قَالَ : اسْقِهِ يَا غُلَامُ مَا أَحَبَّ مِنَ الشَّرَابِ . فَلَمَّا سَقَاهُ اسْتَقَلَّهُ ، وَطَلَبَ الزِّيَادَةَ مِنْهُ . وَكَانَ الْمُهْلَبُ أَوْصَاهُمْ بِالْإِقْلَالِ مِنَ الْمَاءِ ، وَالْإِكْتِسَارِ مِنَ الْخَبْزِ ، قَالَ التَّمِيمِيُّ : إِنَّكَ لَسَرِيعٌ إِلَى الشَّقَى ، سَرِيعٌ إِلَى الزِّيَادَةِ ! وَحَبَسَ يَدَهُ عَنِ الطَّعَامِ . فَقَالَ الْمُهْلَبُ : اللَّهُ عَنْ هَذَا أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّنَا ! أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَدْتَ خِلَافَهُ .

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ دُونَ مُعَاوِيَةَ ، وَدُونَ الْمُهْلَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وَأَنَّهُمْ إِلَى أَسْرَعُ ، وَفِي لَحْيِي أَرْزَعُ^(١) .

(وَاعِظْ وَزَاجِرْ)

ثُمَّ قَالَ : وَفِي الْجَارُودِ بْنِ أَبِي سَبْرَةَ^(٢) لَكُمْ وَاعِظٌ ، وَفِي أَبِي الْحَارِثِ جُمُعَتَيْنِ زَاجِرٌ ، فَقَدْ كَانَا يَذْعِيَانِ إِلَى الطَّعَامِ وَإِلَى الْإِكْرَامِ ، لِيُظَرَفِيَهُمَا ، وَحَلَاوَتِهِمَا ، وَحُسْنِ حَدِيثِهِمَا ، وَقَصْرِ يَوْمِهِمَا . وَكَانَا يَتَشَهَّيَانِ الْغَرَائِبَ ، وَيَقْتَرِحَانِ الطَّرَائِفَ ، وَيُكَلِّفَانِ النَّاسَ الْمُؤَنَّ الثَّقَالَ ، وَيَفْتَحِنَانِ مَا عِنْدَهُمْ بِالْكَلْفِ الشَّدَادِ . فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ إِحْسَانِهِمْ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ .

قَالَ : وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ بِلَالَ بْنَ أَبِي بُرْدَةَ كَانَ رَجُلًا عَيَّابًا ، وَكَانَ إِلَى أَغْرَاضِ الْأَشْرَافِ مُتَسَرِّعًا . فَقَالَ لِلْجَارُودِ : كَيْفَ طَعَامُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ ؟ قَالَ : يُعْرِفُ وَيُنْكِرُ . قَالَ : فَكَيْفَ هُوَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ يُلَاحِظُ اللَّقَمَ ، وَيَنْتَهِرُ السَّائِلَ . قَالَ : فَكَيْفَ طَعَامُ سَلَمَ بْنِ قُتَيْبَةَ ؟ قَالَ : طَعَامُ ثَلَاثَةٍ ، وَإِنْ كَانُوا أَرْبَعَةً جَاعُوا . قَالَ : فَكَيْفَ طَعَامُ تَشْنِيمِ بْنِ الْحَوَارِيِّ ؟ قَالَ : نَقُطُ الْعُرُوسِ . قَالَ : فَكَيْفَ طَعَامُ الْمُتَنَجِّبِ بْنِ أَبِي عُيَيْنَةَ ؟ قَالَ : يَقُولُ : لَا خَيْرَ فِي ثَلَاثِ أَصَابِعَ فِي صَحْفَةٍ - حَتَّى آتَى عَلَى عَامَّةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ يُؤَيِّزُهُ بِالذُّغْوَةِ ، وَبِالْأَنْسَةِ وَالْحَاصَةِ ، وَيَحْكُمُهُ فِي مَالِهِ . فَلَمْ يَنْجُ

(١) أَرْزَعُ : رَعَتِ الْمَاشِيَةَ : أَكَلَتْ كَيْفَ شَاءَتْ . وَالْمُرَادُ هُنَا الْغِيَّةُ حَيْثُ نَفَرَتِ الْآيَةُ مِنْهَا بِأَكْلِ لَحْمِ الْإِخْ وَهُوَ مَيِّتٌ : ﴿ أَجِبْتُ أَمْدُكُرَ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَبِيي مَيِّتًا فَكَرِهْتُهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

(٢) الْجَارُودُ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ سَالِمُ بْنُ سَلْمَةَ الْهَذَلِيُّ الْبَصْرِيُّ ، رَوَى عَنْ أَبِي ، وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَأَنَسَ ، وَرَوَى عَنْهُ قَتَادَةُ وَثَابِتُ الْبَنَانِيِّ . تُوُفِيَ سَنَةَ ١٢٠ (تَهْذِيبُ التَهْذِيبِ) .

منه إلا من كان يُغذّه، كما لم يُتَّسَلْ به إلا من كان يُقرُّبه !

وهذا أبو شعيب القلال في تقريب مؤنس له، وأنسيه به، وفي إحصائه إليه، مع سخائه على المأكول، وعُضُّ طَرَفه عن الأكيل، وقلة مبالاته بالحفظ، وقلة احتفاله بجمع الكثير - سُئِلَ عَنْهُ أَبُو شُعَيْبٍ، فَرَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَرَ قَطُّ أَشْخَ مِنْهُ عَلَى الطَّعَامِ. قِيلَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يَذْلُكُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَضْنَعُهُ صَنْعَةً، وَيُهَيِّئُهُ تَهْيِئَةً مَنْ لَا يَرِيدُ أَنْ يُمَسَّ، فَضْلاً عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ! وَكَيْفَ يَجْتَرِي الضَّرْسُ عَلَى إفسَادِ ذَلِكَ الْحُسْنِ، وَتَقْضِ ذَلِكَ الظُّلْمَ، وَعَلَى تَفْرِيقِ ذَلِكَ التَّأْلِيفِ! وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ حُسْنَهُ يُخْشِمُ، وَأَنَّ جَمَالَهُ يُهَيِّبُ مِنْهُ. فَلَوْ كَانَ سَخِيحًا لَمْ يَمْنَعُ مِنْهُ بِهَذَا السَّلَاحِ، وَلَمْ يَجْعَلْ دُونَهُ الْجُنَّ^(١). فَحَوْلَ إِحْسَانِهِ إِسَاءَةٌ وَبَذَلَهُ مَنَعًا، وَاسْتَدْعَاهُ إِلَيْهِ نَهْيًا.

قَالَ: ثُمَّ قِيلَ لِأَبِي الْحَارِثِ جُمُئِينَ: كَيْفَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ بْنِ يَحْيَى عَلَى غَدَائِهِ؟ قَالَ: أَمَا عَيْنَاهُ فَعَيْنَا مَجْنُونٍ!

وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا: لَوْ كَانَ فِي كَفِّهِ كُرُو خَزْدَلٍ^(٢)، ثُمَّ لَعِبَ بِهِ لَعِبَ الْأَبْلَى^(٣) بِالْأُنْزَرَةِ، لَمَا سَقَطَتْ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ حَبَّةٌ وَاحِدَةٌ!

وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: فَكَيْفَ سَخَاؤُهُ عَلَى الْخُبْزِ خَاصَّةً؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ بِقَدْرِ مَا إِذَا حَبَسَ نَزَفَ السَّحَابُ، مَا تَجَافَى عَنْ رَغِيبٍ!

وَكَانَ أَبُو نَوَاسٍ يَتَوَعَّى عَلَى خُوَانَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ نَيْبَتٍ، كَمَا تَزَوَّعَى الْإِبِلُ فِي الْحَمَضِ بَعْدَ طُولِ الْحُلَّةِ! ثُمَّ كَانَ جَزَاؤُهُ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

خُبِرْتُ إِسْمَاعِيلَ كَالْوَشِّ يَ إِذَا مَا شَقَّ يُزْفَى^(٤)
وَقَالَ:

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَلَيْبُ بْنُ وَائِلٍ لَيَالِي يَخْمِي عِزُّهُ مَنْبَتَ الْبَقْلِ

وَكَانَ أَبُو الشَّيْمَقِيِّ يَعْيبُ فِي طَعَامِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، وَكَانَ لَهُ ضَيْفًا. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ:

رَأَيْتُ الْخُبْزَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى حَسِبْتُ الْخُبْزَ فِي جَوْ السَّحَابِ

وَمَا زَوَّجْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا وَلَكِنْ خِفْتَ مَزْرَئَةَ الذُّبَابِ^(٥)

وَقِيلَ لِلجَمَّازِ: رَأَيْنَاكَ فِي دِهْلِيزِ فَلَانٍ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ قَضْعَةٌ وَأَنْتَ تَأْكُلُ. فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ

الْقَضْعَةُ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ كَانَ فِيهَا؟ قَالَ: قَنَى كَلْبٍ فِي قَحْفِ خَنْزِيرٍ!

وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ: قَدْ نَزَلَتْ بِجَمِيعِ الْقَبَائِلِ، فَكَيْفَ رَأَيْتَ خُرَاعَةً؟ قَالَ: جَوْعٌ

(١) الجُنَّ: جمع جُنَّة، وهي السترة والمانع.

(٢) الأكلَى: نسبة إلى الأكلة، موضع بالبصرة.

(٣) في عيون الأخبار لأبي نواس (٢٧١/٣).

(٤) في عيون الأخبار لأبي الشَّيْمَقِيِّ (٢٧٠/٣).

وَأَحَادِيثُ ! .

وَنَزَلَ عُمَرُ بْنُ مَعْدٍ يَكْرَبُ^(١) بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي الْمُغِيرَةِ ، وَهُمْ أَكْثَرُ قُرَيْشٍ طَعَامًا . فَأَتَاهُ بِمَا خَضَرَ . وَقَدْ كَانَ فِيهَا أَتَاهُ بِهِ فَضَّلَ . فَقَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَهُمْ أَخْوَالُهُ : لِإِمَامِ بَنِي الْمُغِيرَةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ نَزَلْتُ بِهِمْ فَمَا قَرَوْنِي غَيْرَ قَرْنَيْنِ وَكَعْبٍ ثَوْرٍ . قَالَ عُمَرُ : إِنَّ ذَلِكَ لَشُبُعَةٌ .

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ نَزَلَ بِرَبِّ صِرْمَةٍ^(٢) ، فَأَتَاهُ بِلَبَنٍ وَتَمْرٍ وَخَيْسٍ وَخُبْزٍ وَسَمْنٍ سِلَاقٍ^(٣) . فَبَاتَ لَيْلَتَهُ ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَهْجُوهُ : كَيْفَ لَمْ يَنْحِزْ لَهُ - وَهُوَ لَا يُعْرِفُ - بَعِيرًا مِنْ دَوْدِهِ ، أَوْ مِنْ صِرْمَتِهِ ! وَلَوْ نَحَزَ هَذَا الْبَائِسُ لِكُلِّ كَلْبٍ مَرَّ بِهِ بَعِيرًا ، مِنْ مَخَافَةِ لِسَانِهِ ، لَمَا دَارَ الْأَشْبُوْعُ إِلَّا وَهُوَ يَتَعَرَّضُ لِلْسَابِلَةِ ، يَتَكَفَّفُ النَّاسَ ، وَيَسْأَلُهُمُ الْعُلُقَ^(٤) !

وَسَأَلَ زِيَادٌ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقِيلَ : إِنَّهُ لَمَلَارِمٌ ، وَمَا يُغِبُّ غَدَاءَ الْأَمِيرِ . فَقَالَ زِيَادٌ : فَلْيُعِيبِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّ بِالْعِيَالِ . فَالْزُمُوهُ الْغَيْبُ . فَعَابُوا زِيَادًا بِذَلِكَ . وَزَعَمُوا أَنَّهُ اسْتَقْبَلَ حُضُورَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَأَرَادَ أَنْ يُزَجِّرَ بِهِ غَيْرَهُ ، فَيُسْقِطَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ مَالِهِ مِثْلَ مِثْلَةٍ عَظِيمَةٍ .

وَأَمَّا كَانَ ذَلِكَ مِنْ زِيَادٍ عَلَى جِهَةِ النَّظَرِ لِلْعِيَالِ ، وَكَمَا يَنْظُرُ الرَّعِيَّةَ ، وَعَلَى مَذْهَبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . (وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ^(٥) : تَشَبَّهَ زِيَادٌ بِعُمَرَ فَأَقْرَطَ ، وَتَشَبَّهَ الْحِجَاجُ بِزِيَادٍ فَأَهْلَكَ النَّاسَ) - فَجَعَلْتُمْ ذَلِكَ عَنَتًا مِنْهُ .

وَقَالَ يَوْسُفُ بْنُ عُمرٍ لِقَوْمٍ مَوَائِدِهِ : أَعْظَمُوا الثَّرِيدَ ، فَإِنَّهَا لُقْمَةُ الدَّرْدَاءِ^(٦) : فَقَدْ يَخْضَرُ طَعَامُكُمْ الشَّيْخَ الَّذِي قَدْ ذَهَبَ قَمُّهُ ، وَالصَّبِيُّ الَّذِي لَمْ يَنْبُثْ قَمُّهُ . وَأَطْعِمُوهُ مَا تَعْرِقُونَ ؛ فَإِنَّهُ أَنْجَعُ وَأَشْفَى لِلْقَرَمِ^(٧) .

فَقَلْتُمْ : إِنَّمَا أَرَادَ الْعَجَلَةَ وَالرَّاحَةَ بِشُرْعَةِ الْفَرَاغِ ، وَأَنْ يَكِيدَهُمُ بِالْثَّرِيدِ ، وَيَمْلَأُ صُدُورَهُمُ بِالْعُرَاقِ^(٨) .

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : سَيْدُ الطَّعَامِ الثَّرِيدُ ، وَمَثَلُ عَائِشَةَ فِي النِّسَاءِ مَثَلُ الثَّرِيدِ فِي الطَّعَامِ - وَلِعِظَمِ صَنْعَةِ الثَّرِيدِ فِي أَغْنَيْنِ قُرَيْشٍ سَمَّوْا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَتَافٍ بِهَاشِمٍ ، حِينَ هَشَمَ الْخُبْزَ ، وَاتَّخَذَ مِنْهُ

(١) عُمَرُ بْنُ مَعْدٍ يَكْرَبُ بْنُ رُبَيْعَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الزَّيْدِيُّ : فَارَسُ الْيَمَنِ ، وَصَاحِبُ الْغَارَاتِ الْمَذْكُورَةِ . وَفَدَّ عَلَى الْمَدِينَةِ سَنَةَ ٩ هـ ، فَاسْلَمَ . وَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ ارْتَدَّ عُمَرُ ثُمَّ رَجَعَ . شَهِدَ الْيَرْمُوكَ وَالْقَادِسِيَّةَ . وَلَهُ دِيْوَانُ شِعْرِ . الْأَعْلَامُ (٥/٨٦) .

(٢) صِرْمَةٌ : الصَّرْمَةُ مِنَ الْإِبِلِ : هِيَ مَا بَيْنَ الْعِشْرَةِ وَالْأَرْبَعِينَ .

(٣) سِلَاقٌ : سَمْنٌ سَلَى حَتَّى ذَهَبَ أَثَرُ الزَّيْدِ مِنْهُ .

(٤) الْعُلُقُ : جَمْعُ عُلُقَةٍ ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ الْعَيْشِ .

(٥) هُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَبُو سَعِيدٍ إِمَامُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَالْعَالِمُ الْفَقِيهُ الصَّالِحُ النَّاسِكُ تَوَفَّى سَنَةَ ١١٠ هـ .

(٦) الدَّرْدَاءُ : مِنْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ فَتَكُونُ اللَّقْمَةُ لِينَةً . (٧) وَأَشْفَى لِلْقَرَمِ : مَنْ اشْتَدَّتْ شَهْوَتُهُ إِلَى اللَّحْمِ .

(٨) بِالْعُرَاقِ : الْعَظْمُ عَلَيْهِ رَقَائِقُ اللَّحْمِ .

الثريد ، حتى غلب عليه الاسم المشتق له من ذلك .

وقال عوف بن الققعاق لمولاه : اتخذ لنا طعاما يُشبع فضله أهل المؤمنين .

فلثم : فلما رأى الحيز الرقاق والغلاظ والشواء والألوان ، واستطراف^(١) الناس للون بغد اللون ، ودوام أكلهم لدوام الطرب ، وأن ذلك لو كان لونا واحدا لكان أقل لأكلهم ، قال : فهلا فعلته طعاما يدي ، ولم تجعله طعاما يدين !

فقلتم : اتسع ثم ضاق ، حين أراد إطعامهم الثريد والخيس ، وكل ما يؤكل بين دُون يدين .
والقعقاع عري كربة لمولاه أن يزغب عن طعام العرب ، إلى طعام العجم . وأراد دوام قومه على مثل ما كانوا عليه ، وعلى أن الثروة تفتحهم وتفسدهم ، وأن الذي فتح عليهم من باب الترفه ، أشد عليهم مما غلق عليهم من باب فضول اللذة .

وقد قل عمر من جهة التأديب أكثر من ذلك ، حين دعي إلى غرس ، فرأى قدرا صفراء ، وأخرى حمراء ، وواحدة مئة ، وأخرى حلوة ، وواحدة مخمضة . فكأزها^(٢) كلها في قدر عظيمة ، وقال : إن العرب إذا أكلت هذا قتل بعضها بعضا .

(تفسير كلام أبي فاتك)

أما قوله : الفتى لا يكون نشالا ، (فالشال) عنده الذي يتناول من القدر ، ويأكل قبل التصحج ، وقبل أن تنزل القدر ويتام القوم .

(والنشاف) الذي يأخذ حرف الجرقة^(٣) فيفتحه ، ثم يغمسه في رأس القدر ، ويشربه الدسم ، يستأثر بذلك دُون أصحابه .

(والمزسال) رجلان : أحدهما إذا وضع في فمه لقمة هريسة أو ثريدة أو خيسة^(٤) أو أززة ، أرسلها في جوف خلقه إرسالا . والرجل الآخر : هو الذي إذا مشى في أيب^(٥) من فسيل أو شجر ، قبض على رأس السعفة ، أو على رأس الغصن ، لينحيتها عن وجهه . وإذا قضى وطره أرسلها من يديه . فهي لا محالة تصك رجة صاحبه الذي يثلوه ، لا يخفل بذلك ، ولا يعرف ما فيه .

وأما (الكام) فالذي في فيه اللقمة ، ثم يلكمها بأخرى ، قبل إحادة مضغها أو ابتلاعها .

(والمصاص) الذي يمس جوف قصبة العظم ، بعد أن استخرج محه ، واستأثر به دُون أصحابه .

وأما (النفاض) فالذي إذا فرغ من غسل يده في الطست ، نقض يديه من الماء ، فتصح على

(١) استطراف الناس : أي عدهم ذلك طريقاً : أي شائقاً ممتعاً .

(٢) فكأزها : أي جمعها ، والمقصود من ذلك البعد من التعم والتلذذ والقرب من البداوة بتشويه طعام هذه الأكران .

(٣) الجرقة : الرغيف .

(٤) خيسة : طعام من تمر مخلوط بالسمن واللبن المغلى الذي ترك حتى تقطر مازة .

(٥) أيب : الملفف ، والفسيل : صغار النخل .

أصحابه .

وَأَمَّا (الدَّلَالُ) فَالَّذِي لَا يُجِيدُ تَنْقِيَةَ يَدَيْهِ بِالْأَشْتَانِ ، وَيُجِيدُ دَلَكُهُمَا بِالْمِنْدِيلِ . وَلَهُ أَيْضًا تَفْسِيرٌ آخَرُ - وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي تَنْظُهُ - وَهُوَ مَلِيحٌ . وَسَيَقُفُ فِي مَوْضِعِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(وَالْمَقْوَرُ) الَّذِي يَقْوَرُ الْجَرَادُ .

(وَالْمَغْرِبُ) الَّذِي يَأْخُذُ وَعَاءَ الْمِلْحِ ، فَيُدِيرُهُ إِدَارَةَ الْغُرْبَالِ ، لِيَجْمَعَ أَبَازِيرُهُ^(١) ، يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ ، لَا يُبَالِي أَنْ يَدَعَ مِلْحَهُمْ بَلَا أَثَرٍ .

(وَالْمُحْلِفُ) الَّذِي يَتَكَلَّمُ وَاللُّقْمَةُ قَدْ بَلَغَتْ حُلُقُومَهُ . نَقُولُ لِهَذَا : قَبِيحٌ ! دَعِ الْكَلَامَ إِلَى وَقْتِ إِمْكَانِهِ .

(وَالْمُسَوِّغُ) الَّذِي يُعْظِمُ اللَّقْمَ ، فَلَا يَزَالُ قَدْ غَضَّ ، وَلَا يَزَالُ يُسَيِّغُهُ بِالْمَاءِ .

(وَالْمُبْلِعُ) الَّذِي يَأْخُذُ حُرُوفَ الرِّغِيفِ ، أَوْ يَغْمِزُ ظَهَرَ الثَّمَرَةِ بِإِصْبَعِهِ ، لِيَحْمِلَ لَهُ مِنَ الزُّبْدِ وَالسُّنَنِ ، وَمِنَ اللَّبَنِ^(٢) ، وَاللَّبَنِ ، وَمِنَ الْبَيْضِ النَّيْمِ يَرْشُبُ ، أَكْثَرَ .

(وَالْمُخَضَّرُ) الَّذِي يَذْلُكُ يَدَهُ بِالْأَشْتَانِ مِنَ الْعَمَرِ وَالْوَدَكِ ، حَتَّى إِذَا اخْضَرَّ وَاشْوَدَّ مِنَ الدَّرَنِ ، ذَلِكَ بِهِ شَفَتُهُ .

هَذَا تَفْسِيرُ مَا ذَكَرَ الْحَارِثِيُّ مِنْ كَلَامِ أَبِي فَاتِكٍ .

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ هُوَ ، فَإِنَّ (اللُّطَّاعَ) مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ الَّذِي يَلْطَعُ لِصَبْعِهِ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا فِي مَرَقِ الْقَوْمِ أَوْ لَبَنِهِمْ أَوْ سَوِيْقِهِمْ^(٣) ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

(وَالْقَطَّاعُ) الَّذِي يَغْضُ عَلَى اللَّقْمَةِ ، فَيَقْطَعُ نَصْفَهَا ، ثُمَّ يَغْمِشُ النُّصْفَ الْآخَرَ فِي الصُّبَاغِ .

(وَالنَّهَّاشُ) ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ . وَهُوَ الَّذِي يَنْهَشُ اللَّحْمَ كَمَا يَنْهَشُ السَّبْعُ .

(وَالْمَدَّادُ) الَّذِي رَبَّمَا غَضَّ عَلَى الْعَصَبِ الَّتِي لَمْ تَنْضُجْ ، وَهُوَ يَمُدُّهَا بِفِيهِ ، وَيَدُهُ تُؤَثِّرُهَا لَهُ . فَرَبَّمَا قَطَّعَهَا بِشَرَّةٍ ، فَيَكُونُ لَهَا انْتِصَاخٌ عَلَى ثَوْبِ الْمُؤَاكِلِ . وَهُوَ الَّذِي إِذَا أَكَلَ مَعَ أَصْحَابِهِ الرُّطْبَ ، أَوْ الثَّمَرَ ، أَوْ الْهَرِيْسَةَ ، أَوْ الْأُرْزَةَ ، فَاتَى عَلَى مَا يَتَيْنَ يَدَيْهِ ، مَدَّ مَا يَتَيْنَ أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِ .

(وَالدَّفَاعُ) الَّذِي إِذَا وَقَعَ فِي الْقَضْعَةِ عَظْمٌ فَصَارَ مِمَّا يَلِيهِ ، نَحَاهُ بِلُقْمَتِهِ مِنَ الْخَبِزِ ، حَتَّى تَصِيرَ مَكَانَهُ قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَأَنَّهُ يَطْلُبُ بِلُقْمَتِهِ تَشْرِيبَ الْمَرْقِ ، دُونَ إِزَاغَةِ اللَّحْمِ^(٤) .

(وَالْمُحْوَلُ) هُوَ الَّذِي إِذَا رَأَى كَثْرَةَ النَّوَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، احْتَالَ لَهُ حَتَّى يَخْلِطَهُ بِنَوَى صَاحِبِهِ .

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنَ (الصُّيْفِ) (وَالضُّيْفَنِ) ، فَإِنَّ الضُّيْفَنَ ضَعِيفُ الضَّيْفِ .

(١) أَبَازِيرُهُ : تَوَابِلُهُ .

(٢) اللَّبْنُ : أَوَّلُ اللَّبَنِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ قَبْلَ أَنْ يَرِقَ . وَفِي الطَّبِّ : سَائِلُ تَفْرِزُهُ غَدَةُ الثَّدْيِ قَبِيلُ الْوِلَادَةِ وَبَعْدَهَا بِأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ .

(٣) السَّوِيْقُ : مَا يَمْلَأُ مِنَ الْحَنْطَلَةِ وَالشَّعِيرِ . (٤) إِزَاغَةُ اللَّحْمِ : طَلَبُ اللَّحْمِ ، أَيْ السَّعْيُ وَرَآءَهُ .

وَأُنْشِدَ أَبُو زَيْدٍ :

إِذَا جَاءَ ضَيْفٌ جَاءَ لِلضَّيْفِ ضَيْفٌ فَأَوْذَى بِمَا يُقْرَى الضُّيُوفُ الضَّيَافُنُ^(١)

وأما قوله : (الواغل) أهْوَنُ عَلَى مَنْ (الرَّاشِينَ) ، فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ طُفَيْلِي الشَّرَابِ أَهْوَنُ عَلَى مَنْ طُفَيْلِي الطَّعَامِ .

وقول النَّاسِ : فَلَا تَطْفَيْلِي ، لَيْسَ مِنْ أَصُولِ كَلَامِ الْعَرَبِ : لَيْسَ كَالرَّاشِينَ وَاللُّغُومِ . وَأَهْلُ مَكَّةَ يُسَمُّونَهُ الْبَرْقِي .

وَكَانَ بِالْكُوفَةِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَانَ يُسَمَّى طُفَيْلًا . كَانَ أَتْبَعَدَ النَّاسَ نُجْعَةً^(٢) فِي طَلَبِ الْوَلَايِمِ وَالْأَغْرَاسِ . فَقِيلَ لَهُ لَذَلِكَ : طُفَيْلُ الْعَرَائِيسِ ، وَصَارَ ذَلِكَ نَبْرًا لَهُ وَلَقَبًا ، لَا يُعْرَفُ بغيرِهِ . فَصَارَ كُلُّ مَنْ كَانَتْ يَلِكُ طِعْمَتُهُ يَقَالُ لَهُ : طُفَيْلِي .

هذا مِنْ قَوْلِ أَبِي الْيَقْظَانِ .

ثُمَّ قَالَ الْحَارِثِيُّ : وَأَعْجَبُ مِنْ كُلِّ عَجَبٍ ، وَأَطْرَفُ مِنْ كُلِّ طَرِيفٍ ، أَنْكُمْ تُشِيرُونَ عَلَى يَاطْعَامِ الْأَكْلَةِ ، وَدَّعَيْتُمْ إِلَى النَّاسِ مَالِي ، وَأَنْتُمْ أَتْرَكْتُمْ لِهَذَا مَنِي . فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنِّي أَكْثَرُ مَالًا ، وَأَعْدُ عُدَّةً ، فَلَيْسَ مِنْ خَالِي وَحَالِكُمْ فِي التَّقَارُبِ ، أَنْ أَطْعِمَ أَبَدًا ، وَأَنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَبَدًا .

فَإِذَا أَتَيْتُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنَ الْبَذْلِ وَالْإِطْعَامِ عَلَى قَدَرِ احْتِمَالِكُمْ ، عَرَفْتُ بِذَلِكَ أَنَّ الْخَيْرَ أَرَدْتُمْ ، وَإِلَى تَرْبِيَّتِي ذَهَبْتُمْ . وَإِلَّا فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تَخْلُبُونَ خَلْبًا لَكُمْ شَطْرُهُ^(٣) . بَلْ أَنْتُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يُحِبُّ الْخَمْرَ مِنْ مَالِ الشَّدَامَى وَيَكْرَهُ أَنْ يَفَارِقَهُ الْفُلُوسُ

ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَوْ لَمْ أَتْرَكْ مُوََاكَلَةَ النَّاسِ وَإِطْعَامَهُمْ إِلَّا لَشَوْءِ رَغَةٍ عَلَى الْأَشْوَارِ لَتَرَكْتُهُ . وَمَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ نَهَشَ بَضْعَةً لَحْمٍ تَعْرِفَا^(٤) ، فَبَلَغَ ضِرْسَهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ! فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْخَطَّابِ ، مَوْلَى سُلَيْمَانَ .

وَكَانَ إِذَا أَكَلَ ذَهَبَ عَقْلُهُ ، وَجَحَظَتْ عَيْنُهُ ، وَسَكِرَ ، وَسِيدِرَ^(٥) ، وَانْتَهَرَ ، وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ ، وَعَصَبَ ، وَلَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يُنْصِرْ !

فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا يَغْتَرِيهِ ، وَمَا يَغْتَرِي الطَّعَامُ مِنْهُ ، صَوْتُ لَا أَدْنُ لَهُ إِلَّا وَنَحْنُ نَأْكُلُ الثَّمَرَ وَالْجَوْزَ وَالْبَاقِلِي .

وَلَمْ يَفْجَأْنِي قَطُّ وَأَنَا أَكُلُ تَمْرًا إِلَّا اسْتَقَفَّهُ سَقًّا ، وَحَسَاهُ حَشَوًا ، وَذَرَا بِهِ ذَرَوًا ؛ وَلَا وَجْدَهُ كَثِيرًا

(١) عيون الأخبار (٢٥٦/١) برواية : «تقرى» بدلًا من «يقرى» .

(٢) نُجْعَةٌ : نَجْعُ الْكَلَا : طَلَبُهُ فِي مَوَاضِعِهِ ، وَنَجْعُ الْمَكَانِ : أَنَاةُ وَنَزْلُ بِهِ .

(٣) الشطر : النصف .

(٤) تَعْرِفَا : أَيِ اسْتِصْلَا لِلْحَمِّ مِنْ فَوْقِ الْعَظْمِ . لِأَنَّ الْفَرَاقَ الْعَظْمَ الَّذِي أَكَلَ لَحْمَهُ .

(٥) سِيدِرَ : تَحِيرَ وَاضْطَرَبَ .

إِلَّا تَنَاولَ الْقِصْعَةَ كَجُمُحِمَةِ الثَّوْرِ؛ ثُمَّ يَأْخُذُ بِحِصْنَيْهَا، وَيُقَالُهَا مِنَ الْأَرْضِ ! ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْهَشُهَا طَوْلًا
وَعَرَضًا، وَزَفْعًا وَخَفْضًا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهَا جَمِيعًا ! ثُمَّ لَا يَقَعُ غَضَبُهُ إِلَّا عَلَى الْأَنْصَافِ وَالْأَثْلَافِ !
وَلَمْ يَفْصِلْ تَمْرَةً قَطُّ مِنْ ثَمَرَةٍ . وَكَانَ صَاحِبَ جُحَلٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْضِي بِالتَّقَارِيقِ ؛ وَلَا رَمَى بِتَوَافٍ
قَطُّ وَلَا تَزَعَقَمًا^(١) ، وَلَا نَفَى عَنْهُ قَشْرًا ، وَلَا فَتَشَهُ مَخَافَةَ الشُّوسِ وَالذُّودِ !
ثُمَّ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ ، إِلَّا وَكَأَنَّهُ طَالِبٌ ثَارٌ ، وَشَحْشَحَانٌ^(٢) صَاحِبٌ طَائِلَةٌ ! وَكَأَنَّهُ عَاشِقٌ مُغْتَلِمٌ ، أَوْ
جَانِعٌ مَقْرُورٌ^(٣) !

وَاللَّهُ يَا اخُوْنِي لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا يُفْسِدُ طِينَ الرَّدْعَةِ ، وَيَضِيعُ مَاءَ الْبَحْرِ ، لَصَرَفْتُ عَنْهُ وَجْهِي !
فَإِذَا كَانَ أَصْحَابُ النَّظَرِ ، وَأَهْلُ الدِّيَانَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ، هَذِهِ سَبِيرُهُمْ ، وَهَكَذَا أَدْبُهُمْ ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ
لَا يَعُدُّ مَا يُعْدُونَ ، وَلَا يَتَلَعُّ مِنَ الْأَدَبِ حَيْثُ يَتَلْعَوْنَ !

(قِصَّةُ الْكِندِيِّ)

حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ نَهْيَوِيٍّ ، قَالَ : كَانَ الْكِندِيُّ لَا يَزَالُ يَقُولُ لِلسَّاكِنِ ، وَرُبَّمَا قَالَ لِلجَّارِ : إِنَّ فِي
الدَّارِ امْرَأَةً بِهَا حَمْلٌ . وَالْوَحْمَى رُبَّمَا أَشْقَطَتْ مِنْ رِيحِ الْقَدْرِ الطَّيِّبَةِ ! فَإِذَا طَبَخْتُمْ فَوَدُّوا شَهْوَتَهَا ،
وَلَوْ بِغَرَفَةٍ أَوْ لَعَقَةٍ ، فَإِنَّ النَّفْسَ يَرُدُّهَا الْيَسِيرُ ! فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بَعْدَ إِعْلَامِي إِلَيْكَ ، فَكَفَّارَتُكَ - إِنْ
أَشْقَطْتَ - غُرَّةٌ : عَبْدٌ أَوْ^(٤) أَمَةٌ ، أَلَزَمْتُ ذَلِكَ نَفْسَكَ أَمْ أُتَيْتَ !
قَالَ : فَكَانَ رُبَّمَا يُوَافِي إِلَى مَنْزِلَةٍ مِنْ قِصَاعِ الشُّكَاكِ وَالْجِيرَانِ مَا يَكْفِيهِ الْأَيَّامَ ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ
يَقْطُرْنَ وَيَتَغَافَلُونَ .

وَكَانَ الْكِندِيُّ يَقُولُ لِعِيَالِهِ : أَنْتُمْ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ الصَّبَاغِ : إِنَّمَا لِكُلِّ بَيْتٍ مِنْهُمْ لَوْنٌ
وَاحِدٌ . وَعِنْدَكُمْ أَلْوَانٌ !

قَالَ : وَكَنْتُ أَتَغَدَّى عِنْدَهُ يَوْمًا ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ جَارٌ لَهُ . وَكَانَ الْجَارُ لِي صَدِيقًا . فَلَمْ يَغْرِضْ عَلَيْهِ
الْعَدَاءَ . فَاسْتَحْيَيْتُ أَنَا مِنْهُ . فَقُلْتُ : لَوْ أَصَبْتُ مَعَنَا مِمَّا نَأْكُلُ ! قَالَ : قَدْ وَاللَّهِ فَعَلْتُ . قَالَ الْكِندِيُّ :
مَا بَعْدَ اللَّهِ شَيْءٌ^(٥) ! قَالَ : فَكَتَفْتُهُ وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَثْمَانَ - كَتَفًا لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ قَبْضًا وَلَا بَسْطًا ،
وَتَرَكَهُ ! وَلَوْ أَكَلَ لِشَهْدٍ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ قَدْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا !

قَالَ عَمْرُو : بَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَهُ ، إِذْ سَمِعَ صَوْتَ انْقِلَابِ جِرَّةٍ مِنَ الدَّارِ الْأُخْرَى . فَصَاحَ : أَيُّ
قِصَافٍ ! فَقَالَتْ مَجِيئَةً لَهُ : يَمْزُ وَحْيَاتِكَ ! فَكَانَتِ الْجَارِيَةُ فِي الذِّكَاكِ ، أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الْاِسْتِقْصَاءِ .

(١) تَزَعَقَمًا : مَا عَلَى التَّمْرَةِ وَنَحْوِهَا ، وَهُوَ الَّذِي تَتَمَلَّقُ بِهِ .

(٢) شَحْشَحَانٌ : صَاحِبُ الْغَبْرِ عَلَى حَقِّ يَطْلِبُهُ . (٣) الْقَرُ : الْبَرْدُ ، أَيْ أَصَابَهُ الْبَرْدُ .

(٤) غُرَّةٌ : الْغُرَّةُ : بَيَاضٌ فِي وَجْهِ الْفَرَسِ ، وَالْعَبْدُ أَوْ الْأَمَةُ دَبَّةٌ لِلْجَنِينِ الَّذِي أَسْقَطَ .

(٥) انْظُرِ الْعَمْدَ الْغَرِيدَ (١٤٢/٦) .

(بين معبد والكندی فی حوار طويل)

قال معبد : نزلنا دار الكندي أكثر من سنة ، نروح له الكراء ، ونقضي له الحوائج ، ونفي له بالشروط . قلت : قد فهمت تزويج الكراء ، وقضاء الحوائج ، فما معنى الوفاء بالشروط ؟ قال : في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبغ الشاة ، ونشوار العلوقة^(١) ، وألا يُخْرِجُوا عَظْماً ، ولا يُخْرِجُوا كَسَاحَةً ، وأن يكون له نوى الثغر ، وقشور الرمان ، والرقعة من كل قدر تُطبخُ للخبلى في بيته ! وكان في ذلك يتنزل عليهم . فكانوا لطيبه ، وإفراط بُخله ، وحسن حديثه ، يَحْتَمِلُونَ ذلك^(٢) .

قال معبد : فبينما أنا كذلك ، إذ قَدِمَ ابنُ عمِّ لي ومعه ابنُ له ، إذا رُقعة منه قد جاءني : إن كان مقام هذين القادِمَينِ ليلةً أو ليلتين اِخْتَمَلْنَا ذلك ، وإن كان إطماعُ السكان في الليلة الواحدة يُجْرُو علينا الطمع في الليالي الكثيرة .

فكتبُ إليه : ليس مقامهما عندنا إلا شهراً أو نحوه .

فكتبُ إلي : إن دارك بثلاثين درهما . وأنتم بيته ، لكل رأس خمسة . فإذا قد زدت رَجُلَينِ ، فلا بدُّ من زيادة خمستين . فالدار عليك من يؤمك هذا بأربعين !

فكتبُ إليه : وما يَصُركَ من مقامهما ، وثقل أبدانهما على الأرض التي تحمِلُ الجبال ، وثقل مؤنتهما على دُونِكَ ؟ فاكْتُبْ إلي بِغُذْرِكَ لأَعْرِفَهُ .

ولم أذرِ أني أَهْجُمُ على ما هَجَمْتُ ، وأنِّي أَقْعُ منه فيما وقعت !

فكتبُ إلي : الخصالُ التي تَدْعُو إلى ذلك كثيرة . وهي قائمة معروفة : من ذلك سُرعَةُ امتلاءِ البَالُوَةِ ، وما في تَقْيِيَّتِها من شِدَّةِ المؤنة . ومن ذلك أن الأقدام إذا كَثُرَتْ ، كَثُرَ المَشْيُ على ظُهورِ الشَطُوحِ المَطْيَةِ ، وعلى أرضِ البُيُوتِ المَحْصُصَةِ^(٣) ، والصعودُ على الدَّرَجِ الكثيرة : فَيَنْقَشِرُ لذلكِ الطينُ ، وَيَنْقَلِجُ الجصُّ ، وَيَكْثُرُ العَنَبُ ، مع انثناءِ الأجداع ، لكثرةِ الوطءِ ، وتكسرها لِفِرْطِ الثَّقَلِ ! وإذا كَثُرَ الدُّخُولُ والخُرُوجُ ، والفَتْحُ والإغْلَاقُ ، والإقْفَالُ وجذبُ الأقفالِ ، تَهَشُمُ الأبوابُ ، وتَقْلَعُ الرِّزَاتُ .

وإذا كَثُرَ الصُّبْيَانُ ، وتضاعَفَ البُوشُ^(٤) ، نُزِعَتْ مساميرُ الأبوابِ ، وقُلِعَتْ كُلُّ صَبِيَةٍ ، ونُزِعَتْ كُلُّ رَزَةٍ ، وكُسِرَتْ كُلُّ جَوْزَةٍ ؛ وحَفِرَ فيها آبارُ الدُّدَنِ^(٥) ، وهَشُمُوا بِلَاطَها بِالْمَدَاحِي^(٦) . هذا مع

(١) نَشَوَارُ العَلُوقَةِ : ما تبقيه الدابة من الملف . (٢) انظر عيون الأخبار (٣/ ٢٨١ ، ٢٨٢) .

(٣) المَحْصُصَةُ : جِصصُ البناء : أي طلاءُ الجِصصِ ، والجِصصُ هو الجِصُّ وهو خام من كبريتات الكالسيوم .

(٤) البُوشُ : الجماعة في كثرة واختلاط وتطلق على الغوغاء . (٥) الدُّدُنُ : اللَّعْبُ واللَّهْوُ .

(٦) المَدَاحِي : المدحاة خشبة يدحوا بها الصبي فتمر على الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتاحتته وهي لعبة يلعب بها أهل مكة وهي أحجار كالأقراص وتحف حفرة بقلدها فينتحون عنها قليلاً ثم يدحون بذلك الأحجار إلى تلك الحفرة فإن وقع فيها الحجر فقد غلب صاحبها وإن لم يقع غلب .

تخريبِ الحيطانِ بالأوتاد، وحَسْبِ الرُّفوفِ .

وَإِذَا كَثُرَ الْعِيَالُ وَالزُّرَّارُ، وَالضُّيْفَانُ وَالْثُدَمَاءُ، احْتِيجَ مِنْ صَبِّ الْمَاءِ، وَاتَّخَذَ الْجَبَبَةُ الْقَاطِرَةَ، وَالْجِرَارِ الرَّاشِحَةَ، إِلَى أَضْعَافٍ مَا كَانُوا عَلَيْهِ . فَكَمْ مِنْ خَائِطٍ قَدْ تَأْكُلُ أَشْفَلُهُ، وَتَنَازِرُ أَعْلَاهُ، وَاسْتَرْخَى أَسَاسُهُ، وَتَدَاعَى بُنْيَانُهُ، مِنْ قَطْرِ حُبٍّ، وَرَشَحِ جَرٍّ، وَمِنْ فَضْلِ مَاءِ الْبَيْرِ، وَمِنْ سُوءِ التَّدْبِيرِ .

وَعَلَى قَدَرِ كَثَرَتِهِمْ يَخْتَانِجُونَ مِنَ الْخَبِيرِ وَالطَّبِيخِ، وَمِنَ الرُّفُودِ وَالشَّشَجِينَ . وَالنَّارُ لَا تُبْقَى وَلَا تَذُرُ . وَإِنَّمَا الدُّورُ حَطَبٌ لَهَا . وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا مِنْ مَتَاعٍ فَهوَ أَكْلٌ لَهَا . فَكَمْ مِنْ حَرِيقٍ قَدْ أَتَى عَلَى أَضَلِّ الْعَلَّةِ، فَكَلَفْتُمْ أَهْلَهَا أَغْلَظَ الثَّقَفَةِ . وَرَبُّمَا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ غَايَةِ الْعُسْرَةِ، وَشِدَّةِ الْحَالِ . وَرَبُّمَا تَعَدَّتْ تِلْكَ الْجَنَابَةَ إِلَى دَوْرِ الْجِيرَانِ، وَإِلَى مُجَاوَزَةِ الْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ

(رب الدار وبليته من السكان)

فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ حِينَئِذٍ رَبَّ الدَّارِ وَقَدَّرَ بَلِيَّتَهُ، وَمَقْدَارَ مُصِيبَتِهِ، لَكَانَ عَسَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُحْتَمَلًا . وَلَكِنَّهُمْ يَتَشَاءُمُونَ بِهِ، وَلَا يَزَالُونَ يَسْتَتَقِلُونَ ذِكْرَهُ، وَيُكَيِّرُونَ مِنْ لَا يَمْتَنِعُهُ وَتَغْيِيغِهِ !

نَعَمْ، ثُمَّ يَتَّخِذُونَ الْمَطَابِعَ فِي الْعَلَالِيِّ عَلَى ظُهُورِ الشُّطُوحِ، وَإِنْ كَانَ فِي أَرْضِ الدَّارِ فَضْلٌ، وَفِي صَخْنِهَا مَتَسَعٌ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَارِ بِالْأَنْفُسِ، وَالتَّغْرِيرِ بِالْأَمْوَالِ، وَتَعَرُّضِ الْحَرَمِ لَيْلَةَ الْحَرِيقِ لِأَهْلِ الْفَسَادِ، وَهُجُومِهِمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى سِرِّ مَكْتُومٍ، وَخَبِيٍّ مَسْتُورٍ، مِنْ ضَيْفٍ مُسْتَخْفٍ، وَرَبِّ دَارٍ مُتَوَارٍ، وَمِنْ شَرَابٍ مَكْرُوهٍ^(١)، وَمِنْ كِتَابٍ مُتَّهَمٍ^(٢)، وَمِنْ مَالٍ جَمٍّ أُرِيدَ دَفْنُهُ، فَأُعْجِلَ الْحَرِيقُ أَهْلَهُ عَنْ ذَلِكَ فِيهِ، وَمِنْ خَالَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَأُمُورٍ لَا يُجِبُّ النَّاسُ أَنْ يُعْرِفُوا بِهَا .

ثُمَّ لَا يَنْصَبُونَ التَّنَائِيرَ^(٣)، وَلَا يُمَكِّنُونَ لِلْقُدُورِ، إِلَّا عَلَى مَتْنِ السَّطْحِ، حَيْثُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَصَبِ وَالْحَسْبِ إِلَّا الطَّيْنُ الرَّقِيقُ، وَالشَّيْءُ لَا يَبْقَى . هَذَا مَعَ خِفَّةِ الْمُؤَنَةِ فِي إِحْكَامِهَا، وَأَقْنِ الْقُلُوبِ مِنَ الْمَتَالِفِ بِسَبَبِهَا .

فَإِنْ كُنْتُمْ تُقَدِّمُونَ عَلَى ذَلِكَ مَتًّا وَمِنْكُمْ وَأَنْتُمْ ذَاكِرُونَ، فَهَذَا عَجَبٌ ! وَإِنْ كُنْتُمْ لَمْ تَحْفَلُوا بِمَا عَلَيْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَنَسِيتُمْ مَا عَلَيْكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَذَا أَعْجَبُ !

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْكُمْ يُدَافِعُ بِالْكِرَاءِ، وَيُمَاطِلُ بِالْأَدَاءِ . حَتَّى إِذَا جُمِعَتْ أَشْهُرُهُ عَلَيْهِ، فَزَّ وَخَلَّى أَرْيَابَهَا جِياعًا، يَتَنَدَّمُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ حُسْنِ تَقَاضِيهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ . فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ وَشُكْرُهُمْ اقْتِطَاعَ حُقُوقِهِمْ، وَالذَّهَابَ بِأَقْوَاتِهِمْ .

(١) شَرَابٌ مَكْرُوهٌ : يَقْصَدُ بِهِ الْخَمْرُ وَهُوَ مُحَرَّمٌ شَرْعًا . (٢) كِتَابٌ مُتَّهَمٌ : الْمَقْصُودُ رِسَالَةُ مَرْتَابٍ وَمَشْكُوكٍ فِي أَمْرِهَا .

(٣) التَّنَائِيرُ : جَمْعُ تَنْوَرٍ، وَهُوَ مَا يَخْبِزُ فِيهِ .

ويسكنها الساكن حين يسكنها وقد كسختها ونظفناها، ليتحسن في عين المستاجر، وليزغب فيها الناظر. فإذا خرج ترك فيها منزلة وخراباً، لا تُصلح إلا الثقة الموجهة.

ثم لا يدع منزلاً^(١) إلا سرقه، ولا سلماً إلا حمّله؛ ولا نقصاً^(٢) إلا أخذته، ولا بؤادة إلا مضى بها معه. ولا يدع دق الثوب، والدق في الهاون والميجان، في أرض الدار. ويدق على الأجداع والحواضين والرواشين^(٣)

وإن كانت الدار مفرودة^(٤) أو بالأجر مفروشة، وقد كان صاحبها جعل في ناحية منها صخرة، ليكون الدق عليها، ولتكون واقية دونها، دعاهم التهاون والقشوة، والعش والفشولة^(٥)، إلى أن يدقوا حيث جلسوا، وإلى ألا يخفّلوا بما أفسدوا! لم يغط قط لذلك أوشاً^(٦)، ولا استحل صاحب الدار، ولا استغفر الله منه في السر!

ثم يستكبر من نفسه في السنة إخراج عشرة دارهم، ولا يستكثر من رب الدار ألف دينار في الشراء. يذكر ما يصير إلينا مع قلته، ولا يذكر ما يصير إليه مع كثرته!

هذا، والأيام التي تنقضي الميزم، وتبلى الجدة، وتفرق الجميع المجتمع، عاملة في الدور، كما تفعل في الصخور، وتأخذ من المنازل، كما تأخذ من كل رطب وبابس، وكما تجعل الرطب يابساً هسيساً، والهشيم مضجلاً.

ولأنه دام المنازل غاية قرية، ومدة قصيرة. والساكن فيها هو كان المتمتع بها، والمتمتع بمرافقها. وهو الذي أبلى جدتها وتحلاها. وبه هربت وذهب عمرها، لشيء تديره.

فإذا قسمنا الغرم عند انهديمها بإعادتها، وبعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمتها وإصلاحها؛ ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها، وارثقنا^(٧) به من إكرائها، خرج على المسكين من الخشرا، بقدر ما حصل للساكن من الربح. إلا أن الدراهم التي أخرجنها من الثقة كانت جُملة، والتي أخذناها على جهة الغلة جاءت مقطعة.

وهذا مع سوء القضاء، والإخراج إلى طفول الاقتضاء، ومع بغيض الساكن للمسكين، وحب المسكين للساكن؛ لأن المسكين يحب صيحة بدن الساكن، ونفاق شوقه، إن كان تاجراً، وتحرك صناعته، إن كان صانعاً؛ ومحبة الساكن أن يشغل الله عنه المسكين كيف شاء: إن شاء شغله بعينه، وإن شاء بزمانه، وإن شاء بخبث، وإن شاء بموت!

ومدار مئاة أن يشغل عنه. ثم لا يبالى كيف كان ذلك الشغل! إلا أنه كلما كان أشد كان

(١) منزس: خشبة أو حديدة توضع خلف الباب لإحكام إغلاقه.

(٢) النقض: البناء المهمل.

(٣) الروشن: الزف، والنافذة.

(٤) مفرودة: القرمذ كل ما طلى به للزينة كالزعفران والجص.

(٥) فسل الرجل فسولة: جبن وضعف وساء رايه.

(٦) الأوش: ما يعطى تعويضاً عن النقص والعيب.

(٧) ارثق به: انتفع واستعان.

أَحَبُّ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَجْدَرَ أَنْ يَأْمَرَ، وَأَخْلَقَ لِأَنْ يَشْكُنَ. وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ فَتَرَتْ سُوءُهُ، أَوْ كَسَدَتْ صِنَاعَتُهُ، أَلْعَ فِي طَلَبِ التَّخْفِيفِ مِنْ أَصْلِ الْعَلَّةِ، وَالْحَاطِطَةِ مِمَّا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْرَةِ. وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ أَنَاهُ اللَّهُ بِالْأُزْتَاحِ فِي تِجَارَتِهِ، وَالتَّفَاقِي فِي صِنَاعَتِهِ، وَلَمْ يَزَلْ أَنْ يَزِيدَ قِبْرَاطًا فِي ضَرِبَتِهِ، وَلَا أَنْ يُعْجَلَ فَلَسًا قَبْلَ وَقْتِهِ.

(مساوى الشكان)

ثُمَّ إِنْ كَانَتِ الْعَلَّةُ صَحَاحًا، دَفَعَ أَكْثَرَهَا مُقْطَعَةً. وَإِنْ كَانَتْ أَنْصَافًا وَأَرْبَاعًا، دَفَعَهَا قُرَاضَةً مُفْتَنَةً. ثُمَّ لَا يَدْعُ مُزَاتِقًا^(١)، وَلَا مُكْحَلًا، وَلَا زَائِقًا، وَلَا دِينَارًا يَهْرَجًا، إِلَّا دَسَّهُ فِيهِ، وَدَلَّسَهُ عَلَيْهِ، وَاحْتَالَ بِكُلِّ حِيلَةٍ، وَتَأْتَى لَهُ بِكُلِّ سَبَبٍ. فَإِنْ رَدُّوا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا، حَلَفَ بِالْعُمُوسِ^(٢) إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ دَرَاهِمِهِ، وَلَا مِنْ مَالِهِ، وَلَا رَأَاهُ قَطُّ، وَلَا كَانَ فِي مِلْكِهِ.

فَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ جَارِيَةً رَبِّ الدَّارِ أَفْسَدَهَا. وَإِنْ كَانَ غُلَامًا خَدَعَهُ. هَذَا مَعَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْجِيرَانِ، وَالتَّعَرُّضِ لِلْجَارَاتِ، وَمَعَ اضْطِْيَادِ طُيُورِهِمْ، وَتَغْرِيطِنَا لِيَشْكَايَتِهِمْ!

وَرُبَّمَا اسْتَضَعَفَ عَقُولَهُمْ، وَطَمِعَ فِي فَسَادِهِمْ وَعَبَثِهِمْ. فَلَا يَزَالُ يَضْرِبُ لَهُمْ بِالْأَسْلَافِ^(٣)، وَيُغْرِيبُهُمْ بِالشَّهَوَاتِ، وَيَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا مِنَ التَّفَقَّاتِ، لِيُغْنِيَهُمْ، وَيَزْبَحَ عَلَيْهِمْ. حَتَّى إِذَا اسْتَوْتَقَّ مِنْهُمْ، أَعْجَلَهُمْ، وَخَزَقَ بِهِمْ^(٤)، حَتَّى يَتَّقُوهُ بِيَعِ بَغْضِ الدَّارِ، أَوْ بِاشْتِزْهَانِ الْجَمِيعِ، لِيُزْبَحَ مَعَ الذَّهَابِ بِالْأَصْلِ السَّلَامَةِ - مَعَ طُولِ مُقَامِهِ - مِنَ الْكَرَاءِ. وَرُبَّمَا جَعَلَهُ يَبِيعًا فِي الظَّاهِرِ، وَزَهْنًا فِي الْبَاطِنِ، فَحِينَئِذٍ يَقْطُطُّ بِهِمْ دُونَ الْمُهْلَةِ، وَيُدْخِلُهَا قَبْلَ الْوَقْتِ!

وَرُبَّمَا بَلَغَ مِنْ اسْتِضْعَافِهِ، وَاسْتِثْقَالِهِ لِإِدَاءِ الْكَرَاءِ، أَنْ يَدْعِيَ أَنْ لَهُ شَقِيقًا^(٥)، وَأَنْ لَهُ يَدًا، لِيَصِيرَ خَضَمًا مِنَ الْخُصُومِ، وَمَنَازِعًا غَيْرَ غَاصِبٍ.

وَرُبَّمَا اكْتَرَى الْمَنْزَلَ فِيهِ مَرْئَةً، فَاشْتَرَى بَعْضَ مَا يُضْلِحُهَا. ثُمَّ يَتَوَخَّى عَامِلًا جَيِّدَ الْكُشُوءِ، وَجِيرَانًا أَصْحَابَ آتِيَةِ وَالَةٍ. فَإِذَا شَغِلَ الْعَامِلُ وَغَفَلَ، اشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَتَرَكَهُمْ يَتَسَكَّعُونَ!

وَرُبَّمَا اسْتَأْجَرَ إِلَى جَنْبِ سَجْنٍ، لِيَتَّقَبَ أَهْلُهُ إِلَيْهِ، وَإِلَى جَنْبِ صَرَافٍ لِيَتَّقَبَ عَلَيْهِ، طَلَبًا لَطُولِ الْمُهْلَةِ وَالشَّتْرِ، وَلَطُولِ الْمُدَّةِ وَالْأَمَنِ.

وَرُبَّمَا جَنَى السَّاكِنُ مَا يَدْعُو إِلَى هَدْمِ دَارِ الْمُشْكِنِ: بِأَنْ يَقْتُلَ قَتِيلًا، أَوْ يَجْرِخَ شَرِيفًا. فَيَأْتِي

(١) مُزَاتِقًا: مطلي بالزئبق، وهذا من تزييف الدراهم بطلانها به.

(٢) بِالْعُمُوسِ: اليمين الغموس اليمين الكاذبة؛ لأنها تغمس صاحبها في النار.

(٣) الْأَسْلَافُ: جمع سلف، وهو إقراضهم المال.

(٤) خَزَقَ: أحاطت بهم مكائده من كل جانب وشدت عليهم.

(٥) شَقِيقًا: الشقيص: نصيب معلوم غير مفروز.

السلطان الدار، وأربابها إما عُيِّبَ، وإما أيتام، وإما ضَعَفَاءُ؛ فلا يُضْنَعُ شيئاً دُونَ أَنْ يُسَوِّيَهَا بالأرض!

وبَعْدَ فَالِدُورُ مُلَقَّاةٌ، وأربابها منكوبُونَ ومُلَقَّوْنَ. وَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ اغْتِرَارًا بِالنَّاسِ، وَأَبْعَدُهُمْ غَايَةً مِنْ سَلَامَةِ الصُّدُورِ. وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ دَفَعَ دَارَهُ وَنَفَضَهَا وَسَاحَهَا^(١) وَأَبْوَابَهَا، مَعَ حِدِيدِهَا وَدَهَبِ سُقُوفِهَا، إِلَى مَجْهُولٍ لَا يُعْرَفُ، فَقَدْ وَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِ الْغَرَرِ، وَعَلَى أَعْظَمِ الْخَطَرِ. وَقَدْ صَارَ فِي مَعْنَى الْمُودِعِ، وَصَارَ الْمُكْتَرَى فِي مَوْضِعِ الْمُودِعِ. ثُمَّ لَيْسَتْ الْخِيَانَةُ وَسُوءُ الْوِلَايَةِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْوَدَائِعِ أَسْرَعَ مِنْهَا إِلَى الدُّورِ.

وَأَيْضًا، إِنَّ أَضْلَحَ الشُّكَاكِ حَالًا مَنْ إِذَا وَجَدَ فِي الدَّارِ مَرْمَةً، فَقَوَّضُوا إِلَيْهِ النِّفَقَةَ، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَحْسُوبًا لَهُ عِنْدَ الْأَهْلَةِ، يُشْفَقُ فِي الْبِنَاءِ، وَيَزِيدُ فِي الْحِسَابِ.

«فَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ هَؤُلَاءِ أَضْلَحَهُمْ، وَهُمْ خِيَارُهُمْ!»

«وَأَنْتُمْ أَيْضًا أَكْثَرْتُمْ مُسْتَعْلَاتٍ غَيْرِنَا بِأَكْثَرٍ مِمَّا أَكْثَرْتُمُوهَا مَنَا. فَيَسِيرُوا فِيْنَا كَيَسِيرُكُمْ فِيهِمْ، وَأَعْطُونَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، مِثْلَ مَا تُرِيدُونَهُ مَنَا.»

«وَرَبَّمَا تَبَيَّنَ فِي الْأَرْضِ. فَإِذَا صَارَ الْبِنَاءُ بُيَانَكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ لغيرِكُمْ، ادْعَيْتُمْ الشَّرِيكَ، وَجَعَلْتُمُوهُ كَالْإِجَارَةِ، وَحَتَّى تُصَيِّرُوهُ كِتْلَادًا^(٢) مَالٍ، أَوْ مَوْزُوثٍ سَلَفٍ.»

«وَمَجْزَمٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّكُمْ أَهْلَكْتُمْ أَصُولَ أَمْوَالِنَا، وَأَخْرَجْتُمْ غَلَّاتِنَا، وَخَطَطْتُمْ بِسُوءِ مُعَامَلَتِكُمْ أَمَانًا دُورِنَا وَمُسْتَعْلَاتِنَا، حَتَّى سَقَطَتْ غَلَّاتُ الدُّورِ مِنْ أَعْيُنِ الْمُتَبَايِسِينَ وَأَهْلِ الثَّرْوَةِ، وَمِنْ أَعْيُنِ الْعَوَامِّ وَالْحِشْوَةِ^(٣)، وَحَتَّى يُدَايِعُوكُمْ بِكُلِّ جِيلَةٍ، وَصَرَفُوا أَمْوَالَهُمْ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَحَتَّى قَالَ عُبَيْدُ ابْنِ الْحَسَنِ قَوْلًا أَرْسَلَهُ مَثَلًا، وَعَادَ عَلَيْنَا حُجَّةً وَضَرَّرَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: غَلَّةُ الدَّارِ مُشْكَةٌ، وَغَلَّةُ النَّخْلِ كَفَافٌ. وَإِنَّمَا الْغَلَّةُ غَلَّةُ الزَّرْعِ وَالنُّسُولَتَيْنِ^(٤).

«وَأِنَّمَا جَزَّ ذَلِكَ عَلَيْنَا حُسْنُ اقْتِضَائِنَا، وَضَبْرُنَا عَلَى سُوءِ قَضَائِكُمْ، وَأَنْتُمْ تُقَطِّعُونَهَا عَلَيْنَا، وَهِيَ عَلَيْكُمْ مُجَمَّلَةٌ، وَتَلَوْنَنَا بِهَا، وَهِيَ عَلَيْكُمْ خَالَةٌ. فَصَارَتْ لِدَلِكِ غَلَّاتُ الدُّورِ - وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرُ ثَمَنًا وَذَخْلًا - أَقَلُّ ثَمَنًا وَأَخْبَثَ أَضْلًا مِنْ سَائِرِ الْغَلَّاتِ.»

وَأَنْتُمْ شَرُّ عَلَيْنَا مِنَ الْهِنْدِ وَالرُّومِ، وَمَنْ التَّرِكِ وَالْدَّبِلَمِ^(٥)، إِذْ كُنْتُمْ أَخْصَرَ أَذَى، وَأَذْوَمَ شَرًّا. ثُمَّ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُكُمْ وَجَلِيَّتُكُمْ وَمُعَامَلَتُكُمْ، فِي شَيْءٍ لَا بَدَّ لَكُمْ مِنْهُ، فَكَيْفَ كُنْتُمْ لَوْ امْتَحِنْتُمْ بِمَا لَكُمْ عَنْهُ مَنُذُوحَةٌ، وَالْوَجُوهُ فِيهِ مُعْرِضَةٌ، وَأَنْتُمْ فِيهِ بِالْخِيَارِ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ طَرِيقُ الْاضْطِرَارِ؟»

(١) سَاحَهَا: السَّاحُ: نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يَعْظَمُ جَدًّا وَيَذْهَبُ طَوْلًا وَعَرْضًا، وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْخَشَبُ وَهُوَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ.

(٢) كِتْلَادٌ: التَّلَادُ: كُلُّ مَالٍ قَدِيمٍ.

(٣) الْحِشْوَةُ: الْحِشْوَةُ مِنَ النَّاسِ: رَذَالَتُهُمْ.

(٤) النُّسُولَتَيْنِ: الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ، وَالْمَقْصُودُ بَقْلُهُمَا أَوْلَادَهُمَا. (٥) الدَّبِلَمُ: جَيْلٌ مِنَ التَّرِكِ.

« وَهَذَا مَعَ قَوْلِكُمْ : إِنَّ نُزُولَ الْكِرَاءِ ، أَصَوَّبٌ مِنْ نُزُولِ دُورِ الشَّرَاءِ . وَقُلْتُمْ : لِأَنَّ صَاحِبَ الشَّرَاءِ قَدْ أَغْلَقَ رَهْنَهُ ، وَأَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَصَارَ بِهَا مُمْتَنِعًا ، وَبِشْمِهَا مُزْنَهَةً . »

« وَمَنْ اتَّخَذَ دَارًا فَقَدْ أَقَامَ كَفِيلًا لَا يَخْفِرُ^(١) ، وَزَعِيمًا لَا يَغْرُمُ . وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَنْ إِلَى بَيْتِهَا . وَإِنْ أَقَامَ فِيهَا أَلْزَمَتْهُ الْمُؤَنَ ، وَعَرَضَتْهُ لِلْفِتَنِ ، إِنْ أَسَاءُوا جَوَارَهُ ، وَأَنْكَرَ مَكَانَهُ ، وَبَعُدَ مُصْلَاهُ ، وَمَاتَ عَنْهُ شَوْقُهُ ، وَتَفَاوَتْ حَوَائِجُهُ ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ فِي اخْتِيَارِهَا عَلَى سِوَاهَا ، وَأَنَّهُ لَمْ يُوفَّقْ لِرُشِيدِهِ حِينَ أَتَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا . وَإِنْ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ عَبْدٌ ذَارِهِ ، وَخَوْلٌ^(٢) جَارِهِ . »

« وَإِنَّ صَاحِبَ الْكِرَاءِ الْخِيَارُ فِي يَدِهِ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْهِ : فَكُلُّ دَارٍ هِيَ لَهُ مُتَنَزَّةٌ ، إِنْ شَاءَ وَمُتَجَرٍّ ، إِنْ شَاءَ ، وَمُسْكَنٌ ، إِنْ شَاءَ . لَمْ يَخْتَمِلْ فِيهَا الْيَسِيرَ مِنَ الذَّلِّ ، وَلَا الْقَلِيلَ مِنَ الضَّيْمِ ، وَلَا يَعْرِفُ الْهَوَانَ ، وَلَا يُسَامُ الْخَشْفَ ، وَلَا يَعْتَرِسُ مِنَ الْحُسَادِ ، وَلَا يُدَارِي الْمُتَعَلِّلِينَ . »

« وَصَاحِبُ الشَّرَاءِ يَجْرُعُ الْمُرَارَ ، وَيُشْفَى بِكَأْسِ الْعَيْظِ ، وَيَكْدُ لِيَطْلُبَ الْحَوَائِجَ ، وَيَخْتَمِلُ الذَّلَّةَ ، وَإِنْ كَانَ ذَا أَنْفَعَةٍ . إِنْ عَفَا عَلَى كَظْمٍ . وَلَا يُوجِبُهُ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا إِلَى الْعَجْزِ . وَإِنْ رَامَ الْمُكَافَأَةَ ، تَعَرَّضَ لِأَكْثَرِ مِمَّا أَنْكَرَهُ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الْجَارُ قَبْلَ الدَّارِ ، وَالرَّفِيقُ قَبْلَ الطَّرِيقِ^(٣) . »

« وَزَعَمْتُمْ أَنَّ تَسْقُطَ الْكِرَاءِ أَهْوَنُ ، إِذْ كَانَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، وَأَنَّ الشَّدَائِدَ إِذَا وَقَعَتْ جُمْلَةً جَاءَتْ غَامِرَةً لِلْقُوَّةِ . إِذَا تَقَطَّعَ وَتَفَرَّقَ ، فَلَيْسَ يَكْتَرِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ يَفْقِدُهَا وَيَذْكُرُهَا . »

« وَمَالُ الشَّرَاءِ يَخْرُجُ جُمْلَةً ، وَثُلْمَتُهُ^(٤) فِي الْمَالِ وَاسِعَةٌ ، وَطَعْمَتُهُ نَافِذَةٌ . وَلَيْسَ كُلُّ خَرَقٍ يُوقِعُ ، وَلَا خَارِجٌ يَزُجُّ . »

« وَأَنَّهُ قَدْ أَمِنَ مِنَ الْخَرَقِ وَالْعَرَقِ ، وَمِثْلُ أَسْطُوَانٍ^(٥) ، وَإِنْقِصَافِ سَنِهِمْ ، وَاسْتِزْجَاءِ أَسَاسٍ ، وَسُقُوطِ شَتْرَةٍ ، وَسُوءِ جَوَارٍ ، وَحَسَدِ مُشَاكِلٍ^(٦) . »

« وَقُلْتُمْ إِنْ كَانَ تَاجِرًا ، فَتَصْرِيفُ ثَمَنِ الدَّارِ فِي وَجْهِهِ التَّجَارَاتِ أَرْبَحُ ، وَتَحْوِيلُهُ فِي أَصْنَافِ الْبَيْعَاتِ أَكْبَسُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَاجِرًا ، فَفِيمَا وَصَفْنَاهُ لَهُ نَافٍ ، وَفِيمَا عَدَدْنَا لَهُ زَاجِرٌ . »

« فَلَمْ يَمْنَعَكُمْ حُزْمَةُ الْمُسَاكِينَةِ ، وَحَقُّ الْمُجَاوِرَةِ ، وَالْحَاجَةُ إِلَى الشُّكْنَى ، وَمُوَافَقَةُ الْمَنْزِلِ . أَنْ أَشْرَبْتُمْ عَلَى النَّاسِ بِتَرْكِ الشَّرَاءِ ! وَفِي كَسَادِ الدُّورِ فَسَادٌ لِأَثْمَانِ الدُّورِ ، وَجَزَاءَةٌ لِلْمُسْتَاجِرِ ، وَاشْتِخَاطٌ مِنَ الْعَلَّةِ ، وَخُسْرَانٌ فِي أَضَلِّ الْمَالِ . »

« وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ إِلَيْنَا حِينَ حَشَّيْتُمُ النَّاسَ عَلَى الْكِرَاءِ ، بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَضُرُّوْنَا

(١) يَخْفِرُ : يَفِي بِالذِّمَّةِ وَالْمَهْدِ .

(٢) خَوْلٌ : أَخْرَجَهُ السَّيْوِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (١/١٤٩) .

(٣) ثُلْمَتُهُ : الثَّلْمَةُ : الْخَلْلُ فِي الْحَائِطِ وَغَيْرِهِ .

(٤) أَسْطُوَان : الْعَمُودُ

(٥) مُشَاكِل : مُشَابِهٌ وَنَظِيرٌ .

يَتَزَهَّدُكُمْ فِي الشَّرَاءِ ! » .

« وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمَ عَلَى كُلِّ قَوْمٍ إِلَّا بِسَيِّلِهِمْ ، وبِالَّذِي يُغْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ .
فهذه الخصال المذمومة كلها حجة عليكم ، وكلها داعية تهمتكم ، وأخذ الحذر منكم وليست
لكم خصلة مخمودة ، ولا خلة فيما يتنا وبينكم مرضية ! » .

« وقد أزييناكم أن حكم النازلين كحكم المقيمين ، وأن كل زيادة فلها نصيب من الغلة » .
« ولو تغافل لك - يا أخا أهل البصرة - عن زيادة رجلين ، لم أبعدك - على قدر ما رأيت منك -
أن تلزمني ذلك - فيما يتبين - حتى يصير كراء الواحد كبراء الألف ، وتصير الإقامة
كالظن^(١) ، والتفريع كالشغل^(٢) ! » .

« وعلى أتى لو كنت أمسكت عن تفاضيك ، وتغافلت عن تغريفك ما عليك ، لدَّهَبَ الإحسان
إليك باطلاً ، إذ كنت لا ترى للزيادة قدراً » .
« وقد قال الأول :

« والكفر مخبئة لنفس المنعم »^(٣)

وقال الآخر :

تبدلت بالمعروف نكراً وربما تنكر للمعروف من كان يحفر
« أنت تطالبني بغير المغترلة^(٤) للشيعة^(٥) ، وربما بين أهل الكوفة والبصرة ، وبالعداوة التي بين
أسيدي وكندة ، وبما في قلب الشاكرين من استغفال المشكين ! وسيعين الله عليك والسلام » .

(رأى ابن غزوان في الكندي)

قال إسماعيل بن غزوان : لله ذو الكندي ! ما كان أخكمه ، وأخضر حجتته ، وأنصح جيبه^(٦) ،
وأذوم طريقته ! رأيت أنه قد أقبل على جماعة ، ما فيها إلا مفسد ، أو من يؤيئ الفساد لأهله : من شاعر
يؤده أن الناس كلهم قد جازوا حد المسرفين ، إلى حدود المجانين ! ومن صاحب تنقيع^(٧)
واسيكاك ، ومن ملاقي^(٨) متقرب .

(١) كالظن : كالرجل .

(٢) التفريع كالشغل : أي فراغ المسكن منهم كشغله بهم .

(٣) لعترة في ديوانه (١٥٢) ، وصلده :

« نبئت غفراً غير شاكر نعمتي » .

(٤) المغترلة : فرقة من المتكلمين يخالفون أهل السنة في بعض المعتقدات على رأسهم واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن
البحري .

(٥) الشيعة : فرقة كبيرة من المسلمين اجتمعوا على حب علي وآله وأحقيتهم بالإمامة .

(٦) أنصح جيبه : يقال : ناصح الجيب : أي نفى القلب لا غش فيه .

(٧) تنقيع : هو استخراج كل خير من الناس ثم نبذهم وتركهم كما ينبذ الثفل . (٨) ملاق : من يعطى بلسانه ما ليس في قلبه .

فَقَالَ: تُسْمُونَ مَنْ مَنَعَ الْمَالَ مِنْ وُجُوهِ الْخَطَاءِ وَحَصَّنَتْهُ خَوْفًا مِنَ الْغِيْلَةِ، وَحَفِظْتُهُ إِشْفَاقًا مِنَ الذَّلَّةِ، بِخِيَلٍ! تَرِيدُونَ بِذَلِكَ ذِمَّتَهُ وَشَيْئَهُ! وَتُسْمُونَ مَنْ جَهِلَ فَضْلَ الْغِنَى، وَلَمْ يَعْرِفْ ذِلَّةَ الْفَقْرِ، وَأَعْطَى فِي السَّرَفِ، وَتَهَاوَنَ بِالْخَطَاءِ، وَابْتَذَلَ النِّعْمَةَ، وَأَهَانَ نَفْسَهُ بِإِكْرَامِ غَيْرِهِ، جَوَادًا! تَرِيدُونَ بِذَلِكَ حَفْذَهُ وَمَذْحَهُ!

فَاتَّهِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَنْ قَدَّمَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَخْطَأَ عَلَى نَفْسِهِ، فَهَوَّ أَجْدَرَ أَنْ يُخْطِئَ عَلَى غَيْرِهِ، وَمَنْ أَخْطَأَ فِي ظَاهِرِ دُنْيَاةٍ، وَفِيمَا يُوجَدُ فِي الْغَيْنِ، كَانَ أَجْدَرَ أَنْ يُخْطِئَ فِي بَاطِنِ دِينِهِ، وَفِيمَا يُوجَدُ بِالْعَقْلِ. فَمَدَحْتُمْ مَنْ جَمَعَ صُنُوفَ الْخَطَاءِ، وَذَمَّمْتُمْ مَنْ جَمَعَ صُنُوفَ الصُّوَابِ! فَاحْذَرُواهُمْ كُلَّ الْحَذَرِ، وَلَا تَأْمَنُوهُمْ عَلَى حَالٍ!

(الكندي يتحدث عن المال)

قَالَ إِسْمَاعِيلُ: وَسَمِعْتُ الْكِنْدِيَّ يَقُولُ: إِنَّمَا الْمَالُ لِمَنْ حَفِظَهُ، وَإِنَّمَا الْغِنَى لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ. وَلِحِفْظِ الْمَالِ يُنَبِّتُ الْجِيطَانُ، وَغُلَقَتِ الْأَبْوَابُ، وَاتَّخَذَتِ الصَّنَادِيقُ، وَغُمِلَتِ الْأَقْفَالُ، وَنُقِشَتِ الرُّسُومُ وَالْخَوَاتِيمُ، وَيُعَلَّمُ الْحِسَابُ وَالْكِتَابُ.

فَلِمَ تَتَّخِذُونَ هَذِهِ الْوِقَايَاتِ دُونَ الْمَالِ، وَأَنْتُمْ أَقْنَهُ؟ وَأَنْتُمْ سُوشُهُ؟ وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ: أَحْرَسَ أَخَاكَ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ.

وَلَكِنْ اخْسَبْتَ أَنْتَ قَدْ أَخَذْتَهُ فِي الْجَوَاسِقِ^(١)، وَأَوْدَعْتَهُ الصُّخُورَ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ صَدِيقٌ، وَلَا رَسُولٌ وَلَا مُعِينٌ، مَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنَ الشَّارِقِ، وَأَغْدَى عَلَيْهِ مِنَ الْغَاصِبِ؟ وَاجْعَلْكَ قَدْ حَصَّنْتَهُ مِنْ كُلِّ يَدٍ لَا تُقْلِبُكَ، كَيْفَ لَكَ مِنْ أَنْ تُحَصِّنَهُ مِنَ الْيَدِ الَّتِي تَمْلِكُهُ، وَهِيَ عَلَيْهِ أَقْدَرُ، وَدَوَائِعِيهَا أَكْثَرُ؟

وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ حِفْظَ الْمَالِ أَشَدُّ مِنْ جَمْعِهِ. وَهَلْ أَتَى النَّاسَ إِلَّا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ يُقَاتِيهِمْ؟ وَالْمَالُ لِمَنْ حَفِظَهُ وَالْحَسْرَةُ لِمَنْ أَتْلَفَهُ. وَإِنْفَاقُهُ هُوَ إِتْلَافُهُ، وَإِنْ حَسَنْتُمُوهُ بِهَذَا الْإِسْمِ، وَرَزَيْتُمُوهُ بِهَذَا اللَّقَبِ.

وَزَعَمْتُمْ أَنْمَا سَمِعْنَا الْبُخْلَ صَلَاحًا، وَالشُّعْ أَقْتِصَادًا، كَمَا سَمِيَ قَوْمُ الْهَزِيمَةِ أَنْجِيَارًا، وَالْبِذَاءُ عَارِضَةً، وَالْعَزْلُ عَنِ الْوِلَايَةِ صَرَفًا، وَالْجَائِزُ عَلَى أَهْلِ الْخَرَاجِ^(٢) مُسْتَقْصِيًا!

بَلْ أَنْتُمْ الَّذِينَ سَمَّيْتُمْ السَّرَفَ جُودًا، وَالتَّفَجَّ^(٣) أَرْحِيَّةً، وَسُوءَ نَظَرِ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ وَلِعَقِبِهِ كَرَمًا!

(١) الْجَوَاسِقُ: جمع جوسق، والمراد به هنا الحصن.

(٢) الْخَرَاجُ: الأتاوة التي تؤخذ من أموال الناس على الأرضين في البلاد التي افتتحت صلحا وهي البلاد الخراجية. وأهل الخراج من يدفعونه.

(٣) التَّفَجُّ: الكبر والمظمة، والنافع: المتعظم المتكبر.

قال رسول الله ﷺ: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^(١). وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُغْنِيَ عِيَالَكَ بِغَيْرِكَ بِإِقْفَارِ عِيَالِكَ، وَتُسَعِدَ الْغَرِيبَ بِشِقْوَةِ الْغَرِيبِ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَى مَنْ لَا يَغْدِلُ عَنْكَ، وَمَنْ لَوْ أُعْطِيَتْهُ أَبَدًا، لَأَخَذَ أَبَدًا! قَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ صَاحِبُنَا لِأَخِي تَغْلِبَ، فَإِنَّهُ قَالَ: «يَا أَخَا تَغْلِبَ، إِنِّي وَاللَّهِ كُنْتُ أُجْرِي مَا جَزَى هَذَا الْغَيْلُ، وَأُجْرِي وَقَدْ انْقَطَعَ النَّيْلُ. إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُكَ لَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى أَتَجَاوَزَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكَ. إِنِّي لَوْ أَمَكَنْتُ النَّاسَ مِنْ مَالِي لَتَزَعَّوْا ذَارِي طُوبَى طُوبَى! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بَقِيَ مَعِيَ مِنْهُ إِلَّا مَا مَنَعْتَهُ النَّاسَ». وَلَكِنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ إِنْ لَوْ أَمَكَنْتُ النَّاسَ مِنْ نَفْسِي، لَادَّعَوْا رِقِّي بَعْدَ سَلْبِ نَفْسِي.

قَالَ إِسْمَاعِيلُ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: عَجِبْتُ لِمَنْ قُلْتُ ذَرَاهِمَهُ، كَيْفَ يَنَامُ! وَلَكِنْ لَا يَسْتَوِي مَنْ لَمْ يَنَمْ سُورًا، وَمَنْ لَمْ يَنَمْ غَمًّا.

ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَصِيَّةِ الْمَرْءِ يَوْمَ فَقَرِهِ وَحَاجَتِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفَرِّغَ: «الثَّلْثُ. وَالثَّلْثُ كَثِيرٌ»^(٢). _ فَاسْتَحْسَنْتِ الْفُقَهَاءُ، وَتَمَنَّى الصَّالِحُونَ أَنْ تَنْقُصَ مِنَ الثَّلْثِ شَيْئًا، لِامْتِكَارِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الثَّلْثَ، وَلِقَوْلِهِ: «إِنَّكَ إِنْ تَدَّعَى عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَّعِيَهُمْ غَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(٣).

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَزَحْمِ عِيَالَنَا إِلَّا بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ لَنَا. فَكَيْفَ تَأْمُرُونِي أَنْ أُؤْثِرَ أَنْفُسَكُمْ عَلَى نَفْسِي، وَأَقْدَمَ عِيَالَكُمْ عَلَى عِيَالِي، وَأَنْ أَعْتَقِدَ الثَّنَاءَ بَدَلًا مِنَ الْغِنَى، وَأَنْ أَكْثِرَ الرِّيحَ، وَأُضْطَنِّعَ الشَّرَابَ، بَدَلًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ!

قَالَ إِسْمَاعِيلُ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِعِيَالِهِ وَأَصْحَابِهِ: اصْبِرُوا عَنِ الرُّطَبِ عِنْدَ ابْتِدَائِهِ وَأَوَائِلِهِ، وَعَنِ بَاكُورَاتِ الْفَاكِهِةِ، فَإِنَّ لِلنَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ طَارِقٍ نَزْوَةً، وَعِنْدَ كُلِّ هَاجِمٍ نَزْوَةً. وَلِلْقَادِمِ حِلَاوَةٌ وَفَوْحَةٌ، وَلِلجَدِيدِ بَشَاشَةٌ وَغَرَّةٌ^(٤)، فَإِنَّكَ مَتَى رَدَدْتَهَا ارْتَدَّتْ، وَمَتَى رَدَدْتَهَا ارْتَدَعَتْ.

وَالنَّفْسُ غَرْوْفٌ، وَتَقْوَرُ أُلُوفٌ. وَمَا حَمَلْتَهَا اخْتَمَلَتْ، وَإِنْ أَهْمَلْتَهَا فَسَدَتْ. فَإِنْ تَكُفَّ جَمِيعَ دَوَائِعِهَا، وَتَحْسِنَ جَمِيعَ خَوَاطِرِهَا، فِي أَوَّلِ رَدَّةٍ، صَارَتْ أَقْلَ عَدَدًا، وَأَضْعَفَ قُوَّةً. فَإِذَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِيهَا، فَعُظِمَتْ فِي تِلْكَ الْبَاكُورَةِ بِالْغَلَاءِ وَالْقَلَّةِ، فَإِنْ ذَكَرَ الْغَلَاءَ وَالْقَلَّةَ حُجَّةً صَحِيحَةً، وَعِلَّةً عَامِلَةً فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الزَّكَاةِ. بَابُ لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غِنَى (٣/٤٤٥) وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ. وَمُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ. بَابُ بَيَانِ أَنْ أَفْضَلَ الصَّدَقَةُ صَدَقَةُ الصَّحِيحِ الشَّحِيحِ (٩٥، ٩٧، ١٠٦) وَالتِّرْمِذِيُّ وَالسَّائِي وَأَبُو دَاوُدَ وَالدَّارِمِيُّ وَأَحْمَدُ.

(٢) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْمَرَضِيِّ، بَابُ مَا رَخَصَ لِلْمَرِيضِ أَنْ يَقُولَ . . . (١٠/١٢٨) وَفِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى. وَمُسْلِمٌ فِي الْوَصِيَّةِ. بَابُ الْوَصِيَّةِ بِالثَّلْثِ (٥، ٨) وَأَصْحَابُ السُّنَنِ وَمَالِكُ وَالدَّارِمِيُّ وَأَحْمَدُ.

(٤) غَرَّةٌ: اغْتَرَّ فُلَانٌ بِكَذَا: أَيُ خَدَعَ بِهِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْجَدِيدَ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ وَيُسْتَمِيلُهُ.

فَإِذَا أَجَابَتْكَ فِي الْبَاكُورَةِ ، فَسَمِعْهَا مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَوَائِلِ كَثْرَتِهَا وَاضْرِبْ نُقْصَانَ الشَّهْوَةِ وَنُقْصَانَ قُوَّةَ الْعَلَبَةِ ، بِمَقْدَارِ مَا حَدَّثَ لَهَا مِنَ الرُّخْصِ وَالْكَثْرَةِ . فَلَسْتَ تَلْقَى عَلَى هَذَا الْحَسَابِ مِنْ مُعَالَجَةِ الشَّهْوَةِ عِنْدَكَ ، إِلَّا مِثْلَ مَا لَقِيتَ مِنْهَا فِي نَوْمِكَ ، حَتَّى تَنْقُضِي أَيَّامَ الْفَاكِهَةِ ، وَأَنْتِ عَلَى مِثْلِ ابْتِدَاءِ حَالِكَ ، وَعَلَى أَوَّلِ مُجَاهَدَتِكَ لِشَهْوَتِكَ !

وَمَتَى لَمْ تَعُدْ أَيْضًا الشَّهْوَةَ فِتْنَةً ، وَالْهَوَى عَذْوًا ، اغْتَرَرْتَ بِهِمَا ، وَضَعُفْتَ عَنْهُمَا ، وَأَتَمَمْتَهُمَا عَلَى نَفْسِكَ . وَهُمَا أَخْضَرُ عَدُوٌّ ، وَشَرُّ دَخِيلٍ .

فَاضْمِنُوا لِي التَّزَوُّةَ الْأُولَى ، أَضْمِنَ لَكُمْ تَمَامَ الصَّبْرِ ، وَغَاقِبَةَ الْيُسْرِ ، وَثَبَاتَ الْعِزِّ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَالْغِنَى فِي أَغْقَابِكُمْ ، وَدَوَامَ تَعْظِيمِ النَّاسِ لَكُمْ ، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنَفْعَةِ الْغِنَى إِلَّا أَنَّكَ لَا تَزَالُ مُعْظَمًا عِنْدَ مَنْ لَمْ يَنْتَلِ مِنْكَ قَطُّ دِرْهَمًا . لَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ بَيِّنًا ، وَالرُّبْحُ ظَاهِرًا .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَرَكَةِ الثَّرْوَةِ ، وَمِنْ مَنَفْعَةِ الْيُسْرِ ، إِلَّا أَنَّ رَبَّ الْمَالِ الْكَثِيرِ لَوِ اتَّصَلَ بِمَلِكٍ كَبِيرٍ ، فِي جُلُوسَاتِهِ مَنْ هُوَ أَوْجِبُ حُرْمَةٍ ، وَأَقْدَمُ صُحْبَةٍ ، وَأَصْدَقُ مَحَبَّةٍ ، وَأَمْنَعُ إِمْتِنَاعًا ، وَأَكْثَرُ فَايِدَةٍ وَصَوَابًا ، إِلَّا أَنَّهُ خَفِيفُ الْحَالِ ، قَلِيلُ ذَاتِ الْيَدِ ، ثُمَّ أَرَادَ ذَلِكَ الْمَلِكُ أَنْ يُقَسِّمَ مَالًا ، أَوْ يُوزِّعَ بَيْنَهُمْ طَرَفًا ، ^(١) لَجَعَلَ حَظَّ الْمُوسِرِ أَكْثَرَ ، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ شَيْءٍ دُونَ أَصْحَابِهِ ، وَحَظَّ الْمُخِفِّ أَقْلَ ، وَإِنْ كَانَ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَوْقَ أَصْحَابِهِ .

فَدَذَكْرْنَا رِسَالَةَ سَهْلِ بْنِ هَارُونَ ، وَمَذْهَبَ الْجَزَامِيِّ ، وَقِصَصَ الْكِندِيِّ ، وَأَحَادِيثَ الْحَارِثِيِّ ، وَطَرَائِفَ نَحْلِهِمْ ، وَبِدَائِعَ حِيلِهِمْ .

(قِصَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْمُؤَمَّلِ)

قُلْتُ لِمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْمُؤَمَّلِ : أَرَأَيْكَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَتَّخِذُهُ ، وَتُنْفِقُ الْمَالَ وَتَجُودُ بِهِ . وَلَيْسَ بَيْنَ قِلَّةِ الْخَبْزِ وَكَثْرَتِهِ كَثِيرٌ رِبْحٌ . وَالنَّاسُ يُبْخَلُونَ مَنْ قَلَّ عَدُوُّ خُبْرِهِ ، وَرَأَوْا أَرْضَ خِيَوَانِهِ . وَعَلَى أَنِّي أَرَى جَمَاعَةً مَنْ يَأْكُلُ مَعَكَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ خُبْرِكَ .

وَأَنْتِ لَوْ لَمْ تَتَكَلَّفْ ، وَلَمْ نَحْمِلْ عَلَى مَالِكَ بِإِجَادَتِهِ ، وَالتَّكْثِيرِ مِنْهُ ، ثُمَّ أَكَلْتَ وَخَذَكَ لَمْ يَلْمَكَ النَّاسُ ، وَلَمْ يَكْتَرُوا لَذَلِكَ مِنْكَ ، وَلَمْ يَقْضُوا عَلَيْكَ بِالْبُخْلِ ، وَلَا بِالسَّخَاءِ ، وَعِشْتَ سَلِيمًا مَوْفُورًا ، وَكُنْتَ كَوَاحِدٍ مِنْ غُرُوضِ النَّاسِ .

وَأَنْتِ لَمْ تُتَفَقِ الْحَزَائِبُ ^(٢) وَتَبْذُلِ الْمُصُونِ ، إِلَّا وَأَنْتِ رَاغِبٌ فِي الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ ، وَإِلَّا لَتَخُزْنَ

(١) طَرَفًا : جَمْعُ طَرَفَةٍ ، وَهُوَ الْحَدِيثُ الْمُسْتَحْسَنُ الْمَعْجَبُ .

(٢) الْحَزَائِبُ : جَمْعُ حَرِييَّةٍ ، وَهِيَ مَالُ الرَّجُلِ الَّذِي يَعِيشُ مِنْهُ .

الأجر .

فَقَدْ صِرْنَا لِقَلَّةٍ عَدَدِ خُبْرِكَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْيَاءِ ، نَوْضَى لَكَ مِنَ الْعَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَمِنْ غُثِّ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ ، بِالسَّلَامَةِ مِنَ الذَّمِّ وَاللُّومِ ! فَرِّدْ فِي عَدَدِ خُبْرِكَ شَيْئًا ، فَإِنَّ بَتْلَكَ الزِّيَادَةَ الْقَلِيلَةَ يَنْقَلِبُ ذَلِكَ اللَّوْمُ شُكْرًا وَذَلِكَ الذَّمُّ حَمْدًا .

أَعْلِمْتُ أَنَّكَ لَسْتَ تَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ بَعْدَ الْكُلْفَةِ الْعَظِيمَةِ سَالِمًا ، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ ؟ فَانْظُرْ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، رَحِمَكَ اللَّهُ .

(ابن أبي المؤمل يرد)

قَالَ : يَا أَبَا عَثْمَانَ ، أَنْتَ تُخْطِئُ ، وَخَطَأُ الْعَاقِلِ أَبَدًا يَكُونُ عَظِيمًا ، وَإِنْ كَانَ فِي الْعُذْرِ قَلِيلًا ، لِأَنَّهُ إِذَا أَخْطَأَ بِتَفَقُّهِ وَإِحْكَامِهِ . فَعَلَى قَدْرِ التَّفَكُّرِ وَالتَّكْلُفِ ^(١) يَتَعَدَّى مِنَ الرَّشَادِ ، وَيَذْهَبُ عَنْ سَبِيلِ الصَّوَابِ .

وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ قَدْ نَصَحْتَ بِمَبْلَغِ الرَّأْيِ مِنْكَ . وَلَكِنْ خَفَ مَا خَوَّفَتْكَ ، وَإِنَّهُ مَخُوفٌ ! بَلِ الَّذِي أَصْنَعُ أَذِلُّ عَلَى سَخَاءِ النَّفْسِ بِالْمَأْكُولِ ، وَأَذِلُّ عَلَى الْإِحْتِيَالِ لِبِالْعَوَا ، لِأَنَّ الْخُبْرَ إِذَا كَثُرَ عَلَى الْمَوَائِدِ ، وَزُرَتْ ذَلِكَ النَّفْسُ صُدُودًا ، وَلِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْمَأْكُولِ وَغَيْرِ الْمَأْكُولِ ، إِذَا مَلَأَ الْعَيْنَ مَلَأَ الصَّدْرَ . وَفِي ذَلِكَ مَوْتُ الشُّهُورَةِ ، وَتَسْكِينُ الْحَرَكَةِ !

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا جَلَسَ عَلَى يَنْدَرٍ ^(٢) تَمَرٍ فَائِقٍ ، وَعَلَى كُدْسٍ كَثُورٍ مَنُغُوبٍ ، وَعَلَى مَائَةِ قِنَرٍ ^(٣) مَوْزٍ مَوْصُوفٍ ، لَمْ يَكُنْ أَكْلُهُ إِلَّا عَلَى قَدْرِ اسْتِطْرَافِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَكْلُهُ إِلَّا عَلَى قَدْرِ أَكْلِهِ ، إِذَا أَتَى بِذَلِكَ فِي طَبَقِي نَظِيفٍ ، وَمَعَ خَادِمٍ نَظِيفٍ ، عَلَيْهِ مَنْدِيلٌ نَظِيفٌ .

وَبَعْدَ فَأَصْحَابِنَا آيَسُونَ ، وَاقْنُونَ مُسْتَرْسِلُونَ ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الطَّعَامَ لَهُمْ اتَّخَذَ ، وَأَنَّ أَكْلَهُمْ لَهُ أَوْفَقُ مِنْ تَغْرِيقِ الْخَدَمِ وَالْأَتْبَاعِ لَهُ . وَلَوْ احْتَأَجُّوا لَدَعَوْا بِهِ ، وَلَمْ يَحْتَشِسُوا مِنْهُ ، وَلَكَانَ الْأَقْلُ مِنْهُمْ أَنْ يُجَرَّبُوا ذَلِكَ الْمَرَّةَ وَالْمَرَّتَيْنِ ، وَالْأَيُّ يَقْضُوا عَلَيْنَا بِالْبُخْلِ دُونَ أَنْ يَرَوْهُ . فَإِنْ كَانُوا مُحْتَشِسِينَ وَقَدْ بَسَطْنَا لَهُمْ ، وَسَاءَ ظَنُّهُمْ بِنَا ، وَمَعَ مَا يَرَوْنَ مِنَ الْكُلْفَةِ لَهُمْ ، فَهَوْلَاءِ أَصْحَابُ تَجَنُّ وَتَسْرُعٍ . وَلَيْسَ فِي طَاقَتِي إِغْتَابُ الْمُتَجَنِّي ، وَلَا رَدُّ الْمَتَسْرِعِ .

قُلْتُ لَهُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَكْلَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَعِنْدَ إِخْوَانِهِمْ ، وَفِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ . وَرَأَيْتُ أَكْلَهُمْ عِنْدَكَ ، فَرَأَيْتُ شَيْئًا مُتَّفَاقِمًا . فَاحْسُبْ أَنَّ الْبُخْلَ عَلَيْهِمْ غَالِبٌ ، وَأَنَّ الضَّعْفَ لَهُمْ شَامِلٌ ، وَأَنَّ سُوءَ الظَّنِّ يُسْرِعُ إِلَيْهِمْ خَاصَّةً . ثُمَّ لَا تُدَاوِي هَذَا الْأَمْرَ بِمَا لَا مُؤَنَّةَ فِيهِ ؟ وَبِالشَّيْءِ الَّذِي

(١) التَّكْلُفُ : ارْتِكَابُ الْمُشَقَّةِ فِي الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ .

(٢) يَنْدَرٌ : الْجَمْعُ بِيَادِرٍ ، وَهُوَ الْجَرَنُ .

(٣) الْقِنَى : غُصْنٌ لَهُ شُعَبٌ وَفِي الْخَلِّ هُوَ التَّامُّ بِشِمَارِيخِهِ وَرُطْبِهِ ، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿ قَيْنَ الْأَثَلِ بْنِ خَلْفَةَ قَتَوَاهُ دَائِبَةً ﴾ [الأنعام : ٩٩] واستعار القنو هنا للموز .

لا قَدَّرَ له ؟ أو تَدْعُ دعَاءَهُمْ ، والإِزْسَالُ إِلَيْهِمْ ، والجِرْصُ عَلَى إِجَابَتِهِمْ ؟.

والقومَ لَيْسَ يُلْقَوْنَ أَنفُسَهُمْ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا يَجِيئُوكَ بِالِاسْتِحْبَابِ مِنْكَ . فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَمْتَحِنَ مَا أَقُولُ ، فَدَعْ مُوَاطَرَةَ الرُّسْلِ وَالْكَثْبِ ، وَالتَّعَضُّبِ عَلَيْهِمْ إِذَا أَبْطَأُوا . ثُمَّ أَنْظُرْ .

قَالَ : فَإِنَّ الْخَبَرَ إِذَا كَثُرَ عَلَى الْخَوَانِ ، فَالْفَاضِلُ مِمَّا يَأْكُلُونَ لَا يَسْلَمُ مِنَ التَّلَطُّخِ وَالتَّغْيِيرِ^(١) وَالْجَرْدَقَةِ الْعَمِيزَةِ ، لَا أَقْدِرُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا . وَأَسْتَحْيِي أَيْضًا مِنْ إِعَادَتِهَا . فَيَذْهَبُ ذَلِكَ الْفَضْلُ بَاطِلًا . وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الْبَاطِلَ !

قُلْتُ : فَإِنَّ نَاسًا يَأْتُمُونَ بِمَشْجِهِ ، وَيَجْعَلُونَ الثَّرِيدَةَ مِنْهُ . فَلَوْ أَخَذْتَ بِزِيهِمْ ، وَسَلَكْتَ سَبِيلَهُمْ ، أَتَى ذَلِكَ لَكَ عَلَى مَا تُرِيدُ وَنُرِيدُ .

قَالَ : أَفَلَسْتُ أَعْلَمُ كَيْفَ الثَّرِيدَةُ ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ هِيَ ؟ - وَكَيْفَ أَمْنَعُ نَفْسِي التَّوَهُّمَ ، وَأُحَوِّلَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ التَّذْكِيرِ ؟ وَلَعَلَّ الْقَوْمَ أَنْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ عَلَى طُولِ الْأَيَّامِ ، فَيَكُونَ هَذَا قَبِيحًا .

قُلْتُ : فَتَأْمُرُ بِهِ لِلْعِيَالِ ، فَيَقُومُ الْخَوَارِزِيُّ^(٢) الْمَتَلَطِّخُ مَقَامَ الْخُشْكَارِ النَّظِيفِ^(٣) . وَعَلَى أَنَّ الْمَسْحَ وَالذَّلْكَ يَأْتِي عَلَى مَا تَعْلُقُ بِهِ الدَّسَمُ .

قَالَ : عِيَالِي - يَزُحِمُكَ اللَّهُ ! - عِيَالَانِ : وَاحِدٌ أَغْظَمُهُ عَنْ هَذَا وَأَرْفَعُهُ عَنْهُ ، وَآخَرُ لَمْ يَلِغْ عِنْدِي أَنْ يُتْرَفَ بِالْخَوَارِزِيِّ !

قُلْتُ : فَاجْعَلْ إِذَا جَمِيعَ خُبْرِكَ الْخُشْكَارَ ، فَإِنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَوَارِزِيِّ فِي الْخُسْنِ وَالطَّيْبِ ، لَا يَقُومُ بِفَضْلِ مَا بَيْنَ الْحَمْدِ وَالذَّمِّ .

قَالَ : فَهِيَ هُنَا رَأْيِي هُوَ أَعْدَلُ الْأُمُورِ وَأَقْصَدُهَا : وَهُوَ أَنَّا نُحْضِرُ هَذِهِ الزِّيَادَةَ مِنَ الْخَبْرِ عَلَى طَبَقِي ، وَيَكُونُ قَرِيبًا حَيْثُ تَنَالَهُ الْيَدُ ، فَلَا يَخْتَاجُ أَحَدٌ مَعَ قُرْبِهِ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَدْعُوَ بِهِ ؛ وَيَكُونُ قُرْبُهُ مِنْ يَدِهِ كَثْرَةً عَلَى مَا يَدَّيْهِ .

قُلْتُ : فَالْمَانِعُ مِنْ طَلْبِهِ هُوَ الْمَانِعُ مِنْ تَحْوِيلِهِ . فَأُطِغْنِي وَأُخْرِجْ هَذِهِ الزِّيَادَةَ مِنْ مَالِكَ كَيْفَ شِئْتَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمُقَايَسَةَ ، وَطُولَ هَذِهِ الْمَذَاكِرَةِ ، أَضَرُّ عَلَيْنَا مِمَّا نَهَيْشُكَ عَنْهُ ، وَأَرْدُنْكَ عَلَى خِلَافِهِ . فَلَمَّا حَضَرَ وَقْتُ الْغَدَاءِ صَوَّتَ بَغْلَامُهُ - وَكَانَ صُخْمًا ، جَهِيرَ الصَّوْتِ ، صَاحِبَ تَغْيِيرٍ^(٤) ، وَتَشْدِيدٍ^(٥) وَهَمْزٍ^(٦) وَجَزْمٍ^(٧) : يَا مُبَشِّرُ ! هَاتِ مِنَ الْخُبْرِ تَمَامَ عَدَدِ الرُّعُوسِ !

(١) التَّغْيِيرُ : التَّلَوُّثُ بِدَسَمِ الْحَمِّ ، يُقَالُ : غَمِرَتِ الْيَدُ : تَمَلَّقَتْ بِهَا رِيحَ الْحَمِّ أَوْ دَسَمَهُ .

(٢) الْخَوَارِزِيُّ : خَبْرُ الدَّقِيقِ الْأَبْيَضِ . (٣) الْخُشْكَارُ : دَقِيقُ خَشْنٍ غَيْرِ مَنْخُولٍ .

(٤) تَغْيِيرٌ : إِخْرَاجُ الْكَلَامِ مِنْ أَسْفَلِ الْحَلْقِ . (٥) تَشْدِيدٌ : فَتْحُ فَمِهِ وَاتِّسَاعُهُ ، أَوْ لَوَى شِدْقَهُ لِيَفْصَحَ .

(٦) الْهَمْزُ : الْمَقْصُودُ أَنَّهُ كَانَ يَبَالِغُ وَيُؤَثِّرُ فِي سَامِعِهِ بِضَغْطِ كَلِمَاتِهِ . (٧) الْجَزْمُ : الْقَطْعُ فَصَوْتُهُ لَا يَخَالَطُهُ تَرَدُّدٌ .

قلت: وَمَنْ فَرَضَ لَهُمْ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ؟ وَمَنْ جَزَمَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْجَزْمَ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يُشْبِعْ أَحَدَهُمْ رَغِيْفُهُ، أَلَيْسَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُعَوَّلَ عَلَى رَغِيْفِ صَاحِبِهِ، أَوْ يَتَنَحَّى وَعَلَيْهِ بَقِيَّةٌ، أَوْ يُعَلَّقَ يَدُهُ مُنْتَظِرًا لِلْعَادَةِ؟ فَقَدْ عَادَ الْأَمْرُ، وَبَطَلَ مَا تَنَاظَرْنَا فِيهِ.

قال: لَا أَعْلَمُ إِلَّا تَرَكَّ الطَّعَامَ الْبَتَّةَ أَهْوَوْنَا عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْحُصُومَةِ !
قلت: هَذَا مَا لَا شَكَّ فِيهِ. وَقَدْ عَلِمْتُ عِنْدِي بِالصَّوَابِ، وَأَخَذْتُ لِنَفْسِكَ بِالثَّقَةِ، إِنْ وَفَّيْتُ بِهِذَا الْقَوْلِ.

(من أقوال ابن أبي المؤمل)

وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَقُولُ: يَا غِلَامُ، هَاتِ شَيْئًا مِنْ فَلَائِيَّةٍ^(١)، وَأَقِلَّ مِنْهَا، وَأَعِدْ لَنَا مَاءً بَارِدًا، وَأَكْثِرْ مِنْهُ! وَكَانَ يَقُولُ: قَدْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَخَالَ عَنْ أَمْرِهِ وَتَبَدَّلَ، حَتَّى الْمَوَاكِلَةُ. قَاتَلَ اللَّهُ رَجُلًا كُنَّا نُوْأْكِلُهُمْ: مَا رَأَيْتُ قَضْعَةً قَطُرُفَتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ إِلَّا وَفِيهَا فَضْلُ!

وَكَاثُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ إِحْضَارَ الْحَذِي إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ مِنْ آيِنِ الْمَوَائِدِ الرَّفِيعَةِ، وَإِنَّمَا جُعِلَ كَالْعَاقِبَةِ وَالْخَاتِمَةِ، وَكَالْعَلَامَةِ لِلْبَشَرِ وَالْفَرَاغِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُخْضَرْ لِلتَّمْزِيْقِ وَالتَّخْرِيبِ، وَأَنَّ أَهْلَهُ لَوْ أَرَادُوا بِهِ الشُّوْءَ لَقَدَّمُوهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، لَيَقَعَ الْحِدَّةُ بِهِ. بَلْ مَا أَكَلَ مِنْهُ إِذَا جِئَ بِهِ إِلَّا الْعَايْتُ، وَالْأَلَذِي لَوْ لَمْ يَرَهُ لَقَدْ كَانَ رَفَعَ يَدَهُ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ غَيْرَهُ! وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو الْحَارِثِ جُمَيْنٌ، حِينَ رَأَاهُ لَا يُمَسُّ: هَذَا الْمَدْفُوعُ^(٢) عَنْهُ! وَلَوْلَا أَنَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَاهَدَ النَّاسَ لَمَا قَالَ مَا قَالَ.

وَلَقَدْ كَاثُوا بِتَحَامُومٍ بَيْضَةِ الْبَقِيلَةِ^(٣)، وَبَدَّعُهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ، حَتَّى إِنَّ الْقَضْعَةَ لَقَدْ كَانَتْ تُرْفَعُ وَإِنَّ الْبَيْضَ خَاصَّةً لَعَلَى حَالِهِ. وَأَنْتَ الْيَوْمَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُتَمَتَعَ عَيْنَكَ بِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَمِنْ بَيْضِ السَّلَاةِ^(٤)، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ!

لَا جَزْمَ لَقَدْ كَانَ تَرَكَهَ نَاسٌ كَثِيرٌ، مَا بِهِمْ إِلَّا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ مَنْ سَاءَتْ رَعْتُهُ.
وَكَانَ يَقُولُ: الْآدَامُ أَعْدَاءُ لِلْخُبْزِ، وَأَعْدَاؤُهَا لَهُ الْمَالِخُ. فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ انْتَقَمَ مِنْهُ، وَأَعَانَ عَلَيْهِ بِطَلَبِ صَاحِبِهِ الْمَاءَ وَلِكُثْرَتِهِ مِنْهُ، لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَأْتِي عَلَى الْحَوْثِ وَالتَّشْلِ^(٥)!

(يدعو إلى شرب الماء)

وَكَانَ مَعَ هَذَا يَقُولُ: لَوْ شَرِبَ النَّاسُ الْمَاءَ عَلَى الطَّعَامِ مَا اتَّخَمُوا. وَأَقْلَهُهُمْ عَلَيْهِ شُرْبًا أَكْثَرُهُمْ عَنْهُ تَخَمًا. وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَعْرِفُ مِقْدَارَ مَا أَكَلَ حَتَّى يَنَالَ مِنَ الْمَاءِ. وَرَبَّمَا كَانَ شَبْعَانٌ وَهُوَ لَا

(١) فَلَائِيَّةٌ: سَبَقَ تَخْرِيجَ مَعْنَاهَا. وَهِيَ الْمَرْقَةُ مِنَ لَحْمِ الْإِبِلِ وَأَكْبَادُهَا.

(٢) الْمَدْفُوعُ: أَيُ هَذَا الَّذِي لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي بِالْأَذَى. وَهِيَ التَّعَجُّبُ.

(٣) الْبَقِيلَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ مُسْتَدِيرَةٌ مِثْلَ الْبَيْضَةِ.

(٤) السَّلَاةُ: طَائِرٌ أَغْبَرُ طَوِيلُ الرَّجْلَيْنِ.

(٥) انْظُرْ عَيُونَ الْأَخْبَارِ (٢٧٨/٣).

يَذْرِي . فإذا ازدادَ عَلَى مقدارِ الحاجةِ بَشِمْ^(١) . وإذا نَالَ مِنَ المَاءِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ ، عَرَفَهُ ذَلِكَ مقدارَ الحاجاتِ ، فلم يَزِدْ إِلَّا بِقَدْرِ المَصْلَحَةِ .

والأطباءُ يَعْلَمُونَ ما أقولُ حَقًّا . ولكنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لو أَخَذُوا بهذا الرَّأْيِ لتَعَطَّلُوا ، وَلَذَهَبَ المَكْسَبُ ! وما حاجةُ الناسِ إِلَى المُعَالِجِينَ إِذَا صَحَّحْتُ أبدانَهُمْ ؟

وفي قولِ جميعِ النَّاسِ : إِنَّ ماءَ دِجْلَةَ أَمْرَأُ مِنَ الفُرَاتِ وإن ماءَ مِهْرَانَ أَمْرَأُ مِنْ ماءِ نَهْرِ بَلْخَ ، وفي قولِ العربِ : هَذَا ماءٌ نَمِيرٌ يَصْلُحُ عَلَيْهِ المَالُ ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المَاءَ يُعْرَى ، حَتَّى قالوا : أَنَّ المَاءَ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ التُّفَاطَاتُ أَمْرَأُ مِنَ المَاءِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ القَيَّارَاتُ^(٢) فعليكم بِشُرْبِ المَاءِ عَلَى العَدَاءِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرَأُ .

وكان يقولُ : ما بَالُ الرَّجُلِ إِذَا قَالَ : يا غلامُ أَسْقِنِي ماءً ، أو أَسْقِ فَلانًا ماءً ، أَنَّهُ بَقْلَةٌ عَلَى قَدْرِ الرُّيِّ ؟ فإذا قَالَ : أَطْعِمْنِي شَيْئًا ، أو قَالَ : هَاتِ لِفُلانٍ طَعَامًا ، أَنَّهُ مِنَ الخُبْرِ بما يُفْضِلُ عَنِ الجماعةِ ، والطعامِ والشرابِ أَحْوَانٌ مُتَحَالِفَانِ وَمُتَنَزِّرانِ ؟

وكان يقولُ : لولا رُخْصُ المَاءِ وِغْلَاءُ الخُبْرِ لَمَّا كَلَبُوا عَلَى الخُبْرِ ، وَزَهَدُوا فِي المَاءِ . والناسُ أَشَدُّ شَيْءٍ تعظيمًا للمأكولِ إِذَا كَثُرَ ثَمَنُهُ ، أو كانَ قَلِيلًا فِي أَصْلِ مَبْنَتِهِ ، وموضعُ عُنْصَرِهِ . هذا الجَزَرُ الصافي ، وهذا الباقِلِيُّ الأَخْضَرُ العباسيُّ ، أَطْيَبُ مِنْ كُثْثَرَى خُرَّاسَانَ ، ومن المَوْزِ البُشْتَانِيِّ ! ولكنَّهُمْ لِقَصْرِ هِمَّتِهِمْ لا يَتَشَبَّهُونَ إِلَّا عَلَى قَدْرِ الثَّمَنِ^(٣) ، ولا يَحْنُونُ إِلَى الشَيْءِ إِلَّا عَلَى قَدْرِ القِلَّةِ . وهذه العَوَامُ فِي شَهَوَاتِ الأَطْعِمَةِ إِنَّمَا تَذْهَبُ مَعَ التَّقْلِيدِ ، أو مَعَ العادةِ ، أو عَلَى قَدْرِ ما يَغْطِئُ عِنْدَهَا شَأْنِ الطَّعامِ .

وأنا لَسْتُ أَطْعِمُ الجَزَرَ المسلوقَ بالخلِّ والزَّيْتِ والمُرِّ^(٤) ، دونَ الكَمأةِ بالزُّبَيْدِ والفُلْفُلِ^(٥) ، لمكانِ الرُّخْصِ ، أو لمَوْضِعِ الاستيفْضالِ ، ولكنَّ لمكانَ طيبِهِ فِي الحَقِيقَةِ ، ولأنَّهُ مالحٌ الطَّبِيعَةِ ، عَلِمَ ذَلِكَ مَنْ عَلِمَ ، وجَهِلَ ذَلِكَ مَنْ جَهِلَ !

(خدع واحتيال)

وكانَ إِذَا كانَ فِي منزلِهِ قريبًا دَخَلَ عَلَيْهِ الصديقُ لَهُ ، وَقَدْ كانَ تَقَدَّمَ الزائرُ أو الزائرانِ - وكانَ يَسْتَعْمِلُ عَلَى خُوانِهِ مِنَ الخُدْعِ والمكايِدِ والتدبيرِ ، ما لم يَتَلَعَّ بِغَضِّهِ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ ، والمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ، وخازِمُ بْنُ أَبِي خُزَيْمَةَ^(٦) ، وَهَرُوثَةُ بْنُ أَغْيَنَ^(٧) . وكانَ عِنْدَهُ فِيهِ مِنَ الاحْتِيالِ ما لا يَعْرِفُهُ عَمْرُو بْنُ

(١) البشيم : الإكثار من الطعام حتى وصل إلى التخمّة والسأم .

(٢) القار : الزفت : والنفط مزيج من الهيدروكربونات يحصل عليها بتقطير البترول الخام .

(٣) انظر عيون الأخبار (٢٧٨/٣ ، ٢٧٩) . (٤) المرى : ما يؤتد به . (٥) الكمأة : نبات ينقبض الأرض فيخرج كما تخرج الفطر .

(٦) خازِمُ بْنُ خُزَيْمَةَ النهسلي ، من بني صخر بن نهشل ، كان من ولاة خراسان ، وولى أيضاً عمان ، ومات ببغداد فغزى عنه أبو جعفر . (٧) هَرُوثَةُ بْنُ أَغْيَنَ : أمير ، من القادة الشجعان . له عناية بالمعمّان . بنى فى «أرمينية» و «إفريقية» وغيرهما . عين والياً فى عهد الرشيد .

مات محبوباً فى عهد المأمون . الأعلام (٨١/٨) .

العاص ؛ ولا المغيرَةُ بنُ شُعبَةَ . وكان كثيرًا ما يُفْسِكُ الخلالَ بيده ، ليؤيِسَ الداخلَ عليه من عَدَائِهِ ! -
 فإذا دخلَ عليه الصَّدِيقُ لَهُ ، وقد عَزَمَ عَلَى إطعامِ الزَّائِرِ والزَّائِرَتَيْنِ قَبْلَهُ ، وضَاقَ صدرُهُ بالثالثِ - وإن
 كَانَ قَدْ دَعَاهُ وَطَلَبَ إِلَيْهِ - أَرَادَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ ، أو الرابعِ ، إن ابْتُلِيَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا بِصاحبه .
 فيقولُ عندَ أولِ دخوله ، وَخَلَعَ نعلِهِ ، وهو رافعُ صوته بالتَّثْوِيهِ وبالتَّشْنِيعِ : هَاتِ يَا مُبَشِّرُ لفلانٍ
 شَيْئًا يَطْعَمُ مِنْهُ ! هَاتِ لَهُ شَيْئًا يَنَالُ مِنْهُ ! هَاتِ لَهُ شَيْئًا ! أتكالًا عَلَى حَجَلِهِ أو غَضَبِهِ أو أَنْفَتِهِ ؛ وَطَمَعًا
 فِي أَنْ يَقُولَ : قد فعلتُ !

فإنَّ أَحَطًا ذَلِكَ الشَّقِيَّ ، وَحَصِيرَ ، وَقَالَ : قد فعلتُ ، وعلمَ أَنَّهُ قد أَحْرَزَهُ وَحَصَّلَهُ ، وألقاهُ وراءَ
 ظهره ، لم يَرَوْضَ أيضًا بِذَلِكَ حَتَّى يَقُولَ : بِأَيِّ شَيْءٍ تَعْدُدْتِ ؟ فلا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَكْذِبَ ، أو يَتَّجِلَ
 المعاريضُ ^(١) .

فإذا استوثقَ مِنْهُ رِبَاطًا ، وَتَرَكَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَرَمَّزَ ، لم يَرَوْضَ بِذَلِكَ حَتَّى يَقُولَ فِي حَدِيثٍ لَهُ :
 كُنَّا عِنْدَ فُلَانٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فُلَانٌ ، فدَعَاهُ إِلَى عَدَائِهِ فامتنع . ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فَقَالَ : فِي طَعَامِكُمْ بُقِيْلَةٌ أَنْتُمْ
 تُجِيدُونَهَا ؟

ثُمَّ تَنَاوَلَهُ ، فَلَا يَزَالُ يَزِيدُ فِي وَثَاقِهِ ، وَفِي سَدِّ الْأَبْوَابِ عَلَيْهِ ، وَفِي مَنَعِهِ الْبِدَوَاتِ . حَتَّى إِذَا بَلَغَ
 الْعَايَةَ قَالَ : يَا مُبَشِّرُ ، أَمَا إِذْ تَعْدُدِي فُلَانٌ وَاكْتَفَى ، فَهَاتِ لَنَا شَيْئًا نَعْبَثُ بِهِ ! فإذا وَضَعُوا الطَّعَامَ ، أَقْبَلَ
 عَلَى أَشَدِّهِمْ حَيَاءً ، أو عَلَى أَشَدِّهِمْ أَكْلًا ، فسالَهُ عَنْ حَدِيثِ حَسَنِ ، أو عَنْ خَبَرِ طَوِيلٍ ! وَلَا يَسْأَلُهُ
 إِلَّا عَنْ حَدِيثٍ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ أو الرَّأْسِ ! كُلُّ ذَلِكَ لِيَشْغَلَهُ !

فإذا هُمْ أَكَلُوا صَدْرًا ، أَظْهَرَ الْفُتُورَ وَالتَّشَاغَلَ وَالتَّنَقُّرَ ^(٢) ، كَالشُّبْعَانِ الْمَمْتَلِيَّ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ غَيْرَ
 رَافِعِ يَدِهِ ، وَلَا قَاطِعِ أَكْلِهِ ! إِنَّمَا هُوَ التَّنَفُّفُ بَعْدَ النَّفثِ ، وَتَعْلِيْقُ الْيَدِ فِي خَلَلِ ذَلِكَ !
 فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَنْقَبِضَ بَعْضُهُمْ وَيَرْفَعَ يَدَهُ . وَرُبَّمَا شَمِلَ ذَلِكَ جَمَاعَتَهُمْ . فإذا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَهُمْ
 وَاحْتَالَ لَهُمْ ، حَتَّى يَقْلَعَهُمْ مِنْ مَوَاضِعِهِمْ مِنْ حَوَالِ الْخَوَانِ ، وَيُعِيدَهُمْ إِلَى مَوَاضِعِهِمْ مِنْ مَجْلِسِهِمْ ،
 ابْتَدَأَ الْأَكْلَ ، فَأَكَلَ أَكْلَ الْجَائِعِ الْمَقْرُورِ ^(٣) !

(من فوائد الشرب على الرقيق)

وَقَالَ : إِنَّمَا الْأَكْلُ تَارَاتٌ ، وَالشُّرْبُ تَارَاتٌ .
 وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ ، إِذَا بَكَّرُوا عَلَيْهِ : لَمْ لَا نَشْرَبْ أَقْدَاخًا عَلَى الرَّيْقِ ، فَإِنَّهَا تَقْتُلُ
 الدَّيْدَانَ ، وَتُخَفِّشُ لِأَنْفِسِنَا قَلِيلًا ؛ فَإِنَّهَا تَأْتِي عَلَى جَمِيعِ الْفُضُولِ ، وَتُسَهِّي الطَّعَامَ بَعْدَ سَاعَةٍ ؟

(١) المعاريضُ : هي جمع معراض ، وهو للتورية بالشئ عن الشئ من غير تصريح به .

(٢) التنقُرُ : الأخذ من ها هنا ومن ها هنا كالطائر الذي ينقر .

(٣) المقرور : الفر البرد ، والجائع المقرور سريع للاندفاع للنهم للأكل .

وَشُكْرُهُ أَطْيَبُ مِنْ سُكْرِ الْكِطَّةِ^(١). وَالشَّرَابُ عَلَى الْمَلِيلَةِ بَلَاءٌ^(٢). وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَيْبِذِي خَالِصٌ. وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ عَلَى الرَّيْقِ فَهُوَ يَنْكَسِرُ فِي الْفُتُوَّةِ، وَدَعَى فِي أَصْحَابِ النَّبِيزِ! وَإِنَّمَا يَخَافُ عَلَى كَيْدِهِ مِنْ سُورَةِ الشَّرَابِ عَلَى الرَّيْقِ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ بِاللَّحْمِ. وَهَذِهِ الصُّبْحَةُ تَغْسِلُ عَنْكُمْ الْأَوْضَارَ^(٣)، وَتَنْفِي الثَّحْمَ. وَلَيْسَ دَوَاءُ الْخُمَارِ، إِلَّا الشَّرْبُ بِالْكِبَارِ.

وَالْأَعْشَى كَانَ أَعْلَمَ بِهِ حَيْثُ يَقُولُ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا^(٤)

وهذا - حَفِظَكَ اللَّهُ - هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا لَا يَعَانِيُونَ فِيهِ لُقْمَةً وَاحِدَةً، وَلَا يَدْخُلُ أَجْوَاهُمْ مِنَ الثَّقَلِ مَا يَزِنُ خَزْدَلَةً! وَهُوَ يَوْمُ سُورِهِ الثَّامُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ رَجَحَ الْمَرْزُوقَةُ، وَتَمَتَّعَ بِالْمُنَادِمَةِ!

(مع سمكة وما حدث من ابن أبي المؤمل)

وَاشْتَرَى مَرَّةً شَبُوطَةً^(٥) وَهُوَ بَيْغِدَادَ، وَأَخَذَهَا فَائِقَةً عَظِيمَةً. وَغَالَى بِهَا، وَارْتَفَعَ فِي ثَمَنِهَا. وَكَانَ قَدْ بَعُدَ عَنْهُ بِأَكْلِ السَّمَكِ، وَهُوَ بَصْرِيٌّ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ. فَكَانَ قَدْ أَكْبَرَ أَمْرَ هَذِهِ السَّمَكَةِ لِكثَرَةِ ثَمَنِهَا، وَلَيْسَمَنِهَا وَعَظَمِهَا وَلِشِدَّةِ شَهْوَتِهِ لَهَا!

فَحِينَ ظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ خَلَا بِهَا، وَتَفَرَّدَ بِأَطْيَاسِهَا، وَخَسَرَ عَنْ ذِرَاعِيهِ، وَصَمَدَ صَمَدَهَا، هَجَمَتْ عَلَيْهِ وَمَعِيَ السَّدْرِيُّ!

فَلَمَّا رَأَاهُ رَأَى الْمَوْتَ الْأَخْمَرَ، وَالطَّاعُونَ الْجَارِفَ، وَرَأَى قَاصِمَةَ الظَّهْرِ، وَاتَّقَنَ بِالشَّرِّ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ ابْتُلِيَ بِالتَّنِينَ^(٦)! فَلَمْ يُلْبِثْهُ السَّدْرِيُّ حَتَّى قَوَّرَ الشَّرَّةَ بِالْمَبَالِ^(٧)!

فَأَقْبَلَ عَلَى فَقَالَ لِي: يَا أَبَا عَثْمَانَ، السَّدْرِيُّ يُعْجِبُهُ الشَّرُّ! فَمَا فَصَلْتَ الْكَلِمَةَ مِنْ فِيهِ حَتَّى قَبَضَ عَلَى الْقَفَا، فَانْتَرَعَ الْجَانِبَيْنِ جَمِيعًا! فَأَقْبَلَ عَلَى فَقَالَ: وَالسَّدْرِيُّ يُعْجِبُهُ الْأَقْفَاءُ! فَمَا فَرَعَ مِنْ كَلَامِهِ إِلَّا وَالسَّدْرِيُّ قَدْ اجْتَرَفَ الْمَشْنَ كُلَّهُ! فَقَالَ: يَا أَبَا عَثْمَانَ، وَالسَّدْرِيُّ يُعْجِبُهُ الْمُثُونُ!

وَلَمْ يَظُنْ أَنَّ السَّدْرِيَّ يَعْرِفُ فَضِيلَةَ ذَنْبِ الشُّبُوطِ وَعُدُوبَةَ لَحْمِهِ. وَظَنَّ أَنَّهُ سَيَسَلِّمُ لَهُ. وَظَنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ مِنَ الْغَايِضِ. فَلَمْ يَذِرْ إِلَّا وَالسَّدْرِيُّ قَدْ اكْتَسَحَ مَا عَلَى الْوَجْهَتَيْنِ جَمِيعًا! وَلَوْلَا أَنَّ السَّدْرِيَّ أَبْطَرَهُ، وَأَثْقَلَهُ، وَأَكْمَدَهُ، وَمَلَأَ صَدْرَهُ، وَمَلَأَهُ غِيظًا، لَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ مَعَهُ طَرَفًا، لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَكْلَةِ. وَلَكِنَّ الْغَيْظَ كَانَ مِنْ أَعْوَانِ السَّدْرِيَّ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا أَكَلَ السَّدْرِيُّ جَمِيعَ أَطْيَاسِهَا، وَبَقِيَ هُوَ فِي النَّظَّارَةِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي يَدِهِ مِمَّا كَانَ يَأْمُلُهُ فِي تِلْكَ

(١) الكطة: الامتلاء من الأكل.

(٢) الملية: الحر والحمى الباطنة.

(٣) الأوضار: جمع وضر، وهو الدرن.

(٤) الصبح المنير في شعر أبي بصير (١٢١).

(٥) شُبُوطَة: الجمع شُبُوط وهو نوع من السمك.

(٦) بالتنين: نوع من الحيات من أعظمها كأكبر ما يكون منها. (٧) المبال: محل البول.

السَّمَكَةُ إِلَّا الْغَيْظُ الشَّدِيدُ ، وَالْعُزْمُ الثَّقِيلُ ، ظَنُّ أَنَّ فِي سَائِرِ السَّمَكَةِ مَا يُشْبِعُهُ ، وَيَشْفِي مَنْ قَرَبَهُ .
فَبِذَلِكَ كَانَ عَزَاؤُهُ . وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي كَانَ يُغْسِيكَ بِأَرْمَاقِهِ^(١) ، وَحُشَّاشَاتِ نَفْسِهِ ! فَلَمَّا رَأَى
السَّدْرِيَّ يَغْرِى الْفَرِيَّ ، وَيَلْتِهِمُ التَّهَامَا ، قَالَ : يَا أَبَا عَثْمَانَ ، السَّدْرِيُّ يُعِجُّهُ كُلُّ شَيْءٍ !

وَتَوَلَّدَ الْغَيْظُ فِي جَوْفِهِ ، أَقْلَقَتْهُ الرَّغْدَةُ ، فَحَبَّبَتْ نَفْسَهُ . فَمَا زَالَ يَقِيءُ وَيَسْلَخُ ! ثُمَّ رَكِبَتْهُ الْخُمَى !
وَصَحَّتْ تَوْبَتُهُ ، وَتَمَّ عَزْمُهُ فِي الْأَيُّوَاكِيلِ رَغِيْبًا أَبَدًا^(٢) ، وَلَا زَهِيدًا ، وَلَا يَشْتَرِي سَمَكَةً أَبَدًا ،
رَخِيصَةً وَلَا غَالِيَةً ، وَإِنْ أَهْدَوْهَا إِلَيْهِ أَلَّا يَقْبَلَهَا ، وَإِنْ وَجَدَهَا مَطْرُوحَةً لَا يَمَسُّهَا . فَهَذَا مَا كَانَ
حَضَرَنِي مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي الْمُؤْتَمِلِ . وَقَدْ مَاتَ . عَفَا اللَّهُ عَنْهُ !

(قِصَّةُ أَسَدِ بْنِ جَانِي)

فَأَمَّا أَسَدُ بْنُ جَانِي فَكَانَ يَجْعَلُ سَرِيرَهُ فِي الشَّتَاءِ مِنْ قَصَبٍ مُقَشَّرٍ ، لِأَنَّ الْبَرَاغِيثَ تَزْلُقُ عَنْ لِيْطِ
الْقَصَبِ^(٣) لِقَرْوِطِ لِينِهِ وَمَلَأَتْهُ .

وَكَانَ إِذَا دَخَلَ الصَّيْفُ ، وَخَرَّ عَلَيْهِ بَيْتُهُ أَثَارُهُ حَتَّى يُغْرِقَ الْمَشْحَاةَ . ثُمَّ يَصُبُّ عَلَيْهِ جِرَارًا كَثِيرَةً
مِنْ مَاءِ الْبَثْرِ ، وَيَتَوَطَّؤُهُ^(٤) حَتَّى يَسْتَوِيَ . فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَيْتَ بَارِدًا مَا دَامَ نَدِيًّا .

فَإِذَا امْتَدَّ بِهِ اللَّذَى ، وَدَامَ بَرْدُهُ بِدَوَامِهِ ، اكْتَفَى بِذَلِكَ التَّبْرِيدَ صَفِيْفَةً . وَإِنْ جَفَّ قَبْلَ انْقِضَاءِ
الصَّيْفِ ، وَعَادَ عَلَيْهِ الْحَرُّ ، عَادَ عَلَيْهِ بِالْإِثَارَةِ وَالصَّبِّ .

وَكَانَ يَقُولُ : خَيْشَتِي أَرْضٌ ، وَمَاءٌ خَيْشَتِي مِنْ بَثْرِي ، وَيَتِيَّ أَثَرُ ، وَمُؤْتَتِي أَخَفٌ . وَأَنَا أَفْضَلُهُمْ
أَيْضًا بِفَضْلِ الْحِكْمَةِ وَجَوْدَةِ الْآلَةِ .

وَكَانَ طَبِيْبًا فَأَكْسَدَ^(٥) مَرَّةً ، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : السَّنَةُ وَبَقَّةٌ ، وَالْأَمْرَاضُ فَاشِيَةٌ . وَأَنْتَ عَالِمٌ ، وَلَكِ
صَبْرٌ وَخِدْمَةٌ ، وَلَكِ بَيَانٌ وَمَعْرِفَةٌ . فَمِنْ أَيْنَ تَوْتِي فِي هَذَا الْكَسَادِ ؟

قَالَ : أَمَّا وَاحِدَةٌ فَإِنِّي عَنْدَهُمْ مُسْلِمٌ . وَقَدْ اعْتَقَدَ الْقَوْمُ قَبْلَ أَنْ أَتَطَيَّبَ ، لَا بَلَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ، أَنَّ
الْمُسْلِمِينَ لَا يُفْلِحُونَ فِي الطَّبِّ ! وَاسْمِي أَسَدٌ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ اسْمِي صَلِيْبًا ، وَمُرَايِلًا ،
وَيُوحَاثًا ، وَبِيرَا . وَكُنْتُ أَبُو الْحَارِثِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ أَبُو عَيْسَى ، وَأَبُو زَكَرِيَّا ، وَأَبُو إِبْرَاهِيمَ .
وَعَلَى رِءَاءِ قُطْنٍ أَيْضٌ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رِءَاءُ حَرِيرٍ أَسْوَدَ . وَلَقَطِي لَفْظَ عَرَبِيٍّ ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ لَعْنِي لَعْنَةُ أَهْلِ جُنْدَيْسَابُورَ .

(١) بِأَرْمَاقِهِ : جَمْعُ رَمَقٍ ، وَهُوَ بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ أَوْ الرُّوحِ أَوْ آخِرُ النَّفْسِ .

(٢) رَغِيْبًا : الرَّغِيْبُ وَاسِعُ الْجَوْفِ الْأَكُولُ .

(٣) اللَّيْطُ : قَشْرُ كُلِّ شَيْءٍ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا قَشْرَةُ الْقَصْبَةِ اللَّازِقَةِ بِهَا .

(٤) يَتَوَطَّؤُهُ : أَيُّ كَسَدَتِ سَوَاقُهُمْ ، وَأَكْسَدَ الشَّيْءُ : لَمْ يَزَجْ لِقَلَّةِ الرَّغْبَةِ فِيهِ .